المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ
الجمهورية العراقية

٤

المجلد الثاني عشر ـ العدد الرابع ـ ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م

WWW.ATTAWEEL.COM

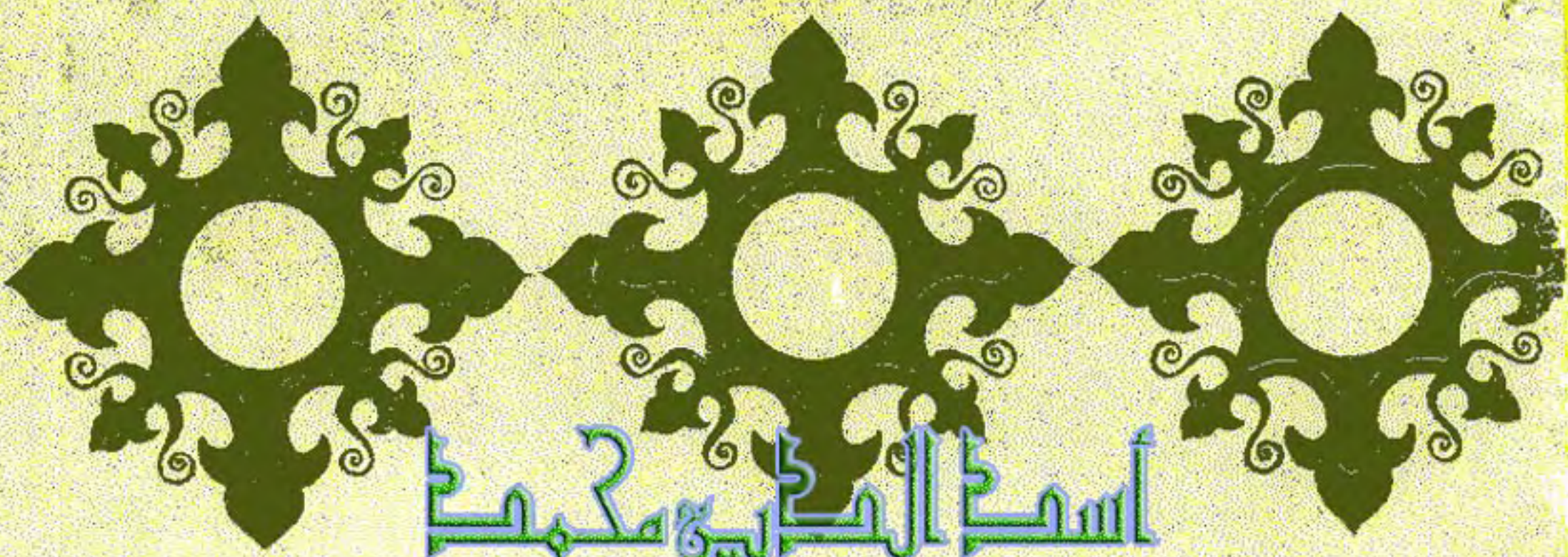

أسد الدين محمد

عدد خاص

الفكر العسكري عند العرب

الفتوة والفروسية

العربيـــة والاســلامية

بقلـــم

محمد مصطفى الهلالي

محافظة نينوى ـ الموصل

توجد علاقة وثيقة وتأثير واضح بين الفتـوة العربية الاسلامية والفروسية الاسلامية من جهة وبين الفروسية الغربية من جهـة اخرى بل ان نظام الفروسية الذي انتشر بعد الحروب الصليبية هو نظام الفتوة الاسلامية الذي اقتبسه الغربيون من المسلمين ! كما سنوضحه فيما بعد .

وقبل ان نتكلم عن العلاقة بينهما نحب ان نبدأ كلامنا بذكر نبذة عن نظام الفتوة والفروسية الاسلامية وعن مكانة الخيل والتدريب على السلاح عند العرب قبل الاسلام وعند المسلمين بعده فقد كانت الفروسية فيهم طبيعة اصيلة وغريزة متمكنة ، بل لقد كانت قوام حياتهم واداة معاشهم لانهم في الاصل بدو يعتمدون الى حد كبير في تحصيل قوتهم على الصيد والمطاردة ومقاومة العدو فيما يجري من حوادث الغزو من سلب ونهب !! ولهذا كانت الفروسية مناط الرياسة ومرقى الاكبار والاجلال بينهم وموضع الاحترام والتعظيم والتقدير والتبجيل !

ولهذا مجد العرب الخيل واكرموها واعتنوا بتربيتها والى الان تنسب الخيول الاصيلة اليهم ، فيقال الخيول العربية .

يقول واصف بطرس غالي : « ان العرب في كل العصور قد عظموا الاسلحة وبلغوا ـ بالتربية الصارمة والتدريب اليومي والاعتناء الذكي المخلص ـ في فن الخيل ومن صياغة الاسلحة واستعمالها شأوا من الاتقان وحد الكمال »(١) .

وكان اول ما يتعلم الصبيان العرب ويتناولونه من ضروب الثقافة المرانة على ركوب الخيل واللعب بالسيف والرمح وكل ادوات القتال والنضال : ثم رواية الشعر وبخاصة شعر الحماسة والمروءة والادب ومكارم الاخلاق .

وكان لصبيان كل قبيلة او حي ملاعب يجرون فيها شوطهم وقد ورد في ذلك قولهم المأثور : « علموا ابناءكم الفروسية وروهم الشعر » . وكانوا يعتبرون الفروسية في ركوب الخيل والقتال على ظهورها والحذق في استعمال السلاح والمقاتلة به والشجاعة وتدبير اللقاء والتقدم والتاخر والثبات واصناف ذلك .

قال ابن القيم : « الفروسية اربعة انواع احدها : ركوب الخيل والكر والفر بها ؛ الثاني : الرمي بالقوس ؛ الثالث : المطاعنة بالرماح ؛ الرابع : المداورة بالسيوف فمن استكملها استكمل الفروسية »(٢) .

هذا في الجاهلية ، اما في الاسلام فانه قد حث على الجهاد واعتبر الشجاعة من الصفات

(١) تقاليد الفروسية عند العرب ص ٢٠٩

(٢) الفروسية ص ١٠٧

WWW.ATTAWEEL.COM

الحميدة والخلال الحسنة التي يجب ان يتصف ويتحلى بها المسلمون « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف ... » .

وقد وردت ايات واحاديث واقوال كثيرة ومتنوعة في تحبيذ تربية الخيل والرماية والتدريب على الاسلحة المختلفة .

قال تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... » واقسم رب العزة بالخيل فقال جل اسمه : « والعاديات ضبحا فالموريات قدحا ؛ فالمغيرات صبحا ... » وقال تعالى : « الخيل والبغال ... » و « ... الصافنات الجياد ... » .

وقال الرسول « ص » : « اكرموا الخيل وجللوها » .

وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبدالله قال: رايت رسول الله «ص» يلوي ناصية فرسه باصبعه وهو يقول : « الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ؛ الاجر والغنيمة » .

وقوله « ص » : « من ارتبط فرسا في سبيل الله ؛ كان له مثل اجر الصائم والقائم والباسط يده بالصدقة ؛ مادام ينفق على فرسه » .

وقوله « ص » : « من هم ان يرتبط فرسا في سبيل الله بنية صادقة اعطي اجر شهيد » وسأل رجل النبي « ص » : اي المال خير ؟ قال سكة مأبورة ومهرة مأمورة يعني كثيرة النسل والانتاج .

وقال « ص » : اركبوا وارموا وان ترموا احب الي من ان تركبوا .

وقال «ص» : كل لهو المؤمن باطل إلاّ في ثلاث تاديبه فرسه ؛ ورميه عن كبد قوسه ؛ وملاعبته امراته ؛ فانه حق .

وقوله « ص » : ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والقوي به في سبيل الله ؛ اي والرامي به في سبيل الله .

وقوله « ص » : الجنة تحت ظلال السيوف .

وقد نهى « ص » عن ايذاء الخيل وعن خصائها وجز اذنابها .

وقال « ص » : عليكم باناث الخيل فان ظهورها حرز وبطونها كنز »

وجاء رجل الى النبي « ص » فقال : اريد ان اعد فرسا ؛ قال رسول الله « ص » فاشتر اذن ادهم او كميتا اقرح ارثم محجلا مطلق اليمين .

وفي حديث اخر : « فانها ميامين الخيل ثم اغز تسلم وتغنم ان شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بالرمي فانه ليس من اللهو » .

وقال « ص » : « كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو الا اربع خصال : مشي الرجل بين الغرضين « للرمي » وتأديبه فرسه ؛ وملاعبته اهله وتعليمه السباحة » .

وما ابلغ قوله « ص » : يا خيل الله اركبي !!

وكان النبي « ص » يقول وهو يدخل مكة حاجا في العام السابع للهجرة رحم الله امرا اراهم اليوم من نفسه .

ويقول ابن القيم عن الخيل : انها كانت احب الاشياء الى رسول الله « ص » بعد النساء . فروى النسائي في سننه عن انس قال : « لم يكن شيء احب الى رسول الله «ص» بعد النساء من الخيل » . ورؤي رسول الله «ص» يمسح وجه فرسه بردائه فقيل له في ذلك ؛ فقال : « اني عوتبت في الخيل » لكرامتها عليه وعلى من عاتبه عليها (٢) .

ويتفق المؤرخون على خمسة من اسماء الجياد التي حظيت برعاية الرسول الكريم «ص» وهي : ازاز ـ لحاف ـ المرتجز ـ السكب ـ اليعسوب*

وكان النبي «ص» يظهر حبه لهذه الجياد جميعا بلا تمييز ويغدق عليها عطفه ؛ فكان يقدم لها الشعير بيده ؛ وقد ثبت ان رسول الله «ص» مسح بكمه وجه فرسه وعينيه ومنخريه وقد افادت تلك الدروس كما يتجلى ذلك في القصة التالية :

روى « صاحب رشحات المداد » ان روح بن زنباع الجذامي راى تميما الداري فوجده ينقي لفرسه شعيرا ؛ ثم يعلقه عليه وحوله اهله .

---

(٢) المصدر السابق ص ١٢

* جاء في السيرة النبوية تحت عنوان « اسماء افراسي المسلمين : قال ابن اسحاق كان اسم فرس محمود : ذا اللمة . قال ابن هشام : وكان اسم فرس سعدبن زيد : لاحق واسم فرس المقداد بعزجة ويقال سبحة ، واسم فرس عكاشه بن محصن : ذو اللمة واسم فرس ابي قتادة حزوة ، وفرس عباد بن بشر لماع ، وفرس اسيد بن ظهير مسنون ، وفرس ابي عياش جلوة . قال ابن اسحاق : وحدثني بعض من لاانهم عن عبدالله بن كعب بن مالك ان مجززا انما كان على فرس لعكاشه بن محصن يقال له الجناح فقتل مجزز واستلبت الجناح .

فقال روح : ما كان لك من هؤلاء ما يكفيك ؟ قال تميم : بلى ولكني سمعت رسول الله «ص» يقول : « ما من امرىء مسلم ينقي لفرسه شعيرا ثم يعلقه عليه ، الا كتب الله له بكل حبة حسنة »(٤) .

وكان عمر بن الخطاب « رض » من اشهر فرسان الصحابة ، ويقال انه كان يمسك اذني فرسه ثم يقفز عليه وهو يعدو فيحكم قياده فكأنما ولد على ظهر فرس .

قال العمري : وكان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى اذنه اليمنى وبيده اليسرى اذن فرسه اليسرى ثم يجمع جرافيزه ويثبت فكأنما خلق على ظهر فرس »(٥) .

قال المتنبي :

فكأنما خلقت قياما تحتهم
وكانهم ولدوا على صهواتها

ومن اقوال عمر بن الخطاب « رض » المأثورة: « علموا اولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثبا » .

وقوله : « لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزح وينزو » اي يثبت على الخيل عند الركوب من غير استعانة بالركاب .

وقال عمرو بن العاص : « لا تزالون اصحاء مانزعتم ونذوتم» (النزع : رمي النبال عن القواس؛ اما النذو : فالفروسية) .

وقد قرن المتنبي عزة الفارس بفضل الكتاب فقال :

اعز مكان في الدنيا سرج سابح
وخير جليس في الانام كتاب

وقال ابو فراس الحمداني :

وجددنا الموالي في مقام
تحدث عنه ربات الحجال
كان الخيل تعلم من عليها
ففي بعض على بعض تعالي

يقول « ابو فراس » اضفنا في معركتنا الظافرة هذه على العدو امجادا بعد انتصاراتنا الغابرة : اصبحت حديث النساء المحصنات هذا وان خيلنا لفارط ابائها وبالغ ذكائها يعلم كل فرس فيهن نصيب ما قام به فارسه ، فالفرس الذي ابلى فارسه بلاء حسنا في المعركة يتعالى ترفعا وشموخا وعزة عن ان يتواضع للفرس الذي لم يبل فارسه البلاء البطولي ؛ متماليا عن ان يلتفت اليه !!

وعن اهتمام العرب والمسلمين الشديد بالخيل وولعهم في سباقاتها وجميع انواع الرياضة والفروسية قال غوستاف لوبون : « والمصارعة والرماية ولعبة الكرة والمسايفة ولعبة الصولجان ، مما هو شائع بين العرب ولعبة الرمح وسباق الخيل من اكثر ما يولع به الاعراب » .

وعن تقدم الامم وسيرها في طريق الرقي لانها عرفت الخيل واستخدمتها وتاخر امم اخرى غيرها لانها لم تعرف كيف تستخدم الخيل وتستفيد منها ، قال المؤرخ البريطاني « جون تروتوود JOHN TROTWOOD : « ان الامم التي عرفت الخيل واستخدامها هي الامم التي تقدمت وسارت في معارج الرقي ، والامم التي لم تعرف كيف تستفيد من الخيل لم تصل الى مراتب الامم القائدة ، صانعة التاريخ » .

ولشدة اهتمام العرب والمسلمين بالخيل والعناية بها حفظوا عتيقها واصيلها من هجينها واشتهرت منهم جماعة عرفت بـ « نعات الخيل » ومن اشهرهم سلمان بن ربيعة الباهلي ، فقد كان اختصاصيا بامور الخيل يعرف الهجين من العتيق فعينه عمر بن الخطاب « رض » للتفتيش على خيول الجيش بالكوفة وتمرينها وبيطرتها !

يقول الاستاذ « عبدالرؤوف عون » : « ولما عرف المسلمون فضل الفرسان على المشاة اكثروا من العناية بالخيل وحفظوا مشيات العتيق والهجين منها حتى شهر جماعة منهم باسم « نعات الخيل » وكان « عمر بن الخطاب » يعني بخيل المسلمين ويذهب الى الحمى القريب من المدينة ليشرف على تمرينها ، وكان يصحب معه « سلمان بن ربيعة الباهلي » الذي سمي « سلمان الخيل » لخبرته بها ، فكان يشرف على بيطرتها ويفرق بعلاماته بين العتيق والهجين منها ، وقد عينه الفاروق للتفتيش على خيول الجيش بالكوفة ولما ولي امر الاقباض يوم « جلولاء » لم يضرب بسهم الا للعتاق منها ، ليبعد الناس عن اقتناء الفرس المهجن الذي اختلط بدم غير اصيل . وكان قواد المسلمين يعرضون كاعتراض الرجال ، فمن وجدوا في فرسه هزالا او في عدته نقصا انقصوا من مرتبه عقابا له ، ومن عني بها زادوا في فريضته ، ولذا كان بعض الفرسان

(٤) تقاليد الفروسية عند العرب ص١٦٩ .
(٥) ابن قتيبة « عيون الاخبار » ج ١ ص١٣٢ .

الاشداء يعاقب بين فرسين يحارب عليهما ويأخذ اسهمهما ، كما فعل » الزبير بن العوام « في حنين ، وفي حروب الشام المختلفة ، وكثيرا ما رأينا الفرسان يطلقون على خيلهم اسماء معينة تعرف بها * وذلك اهتماما بشانها لانها عماد الطلائع والسرايا ومنها يتألف جناحا الجيش لحمايته » (٦) .

وقال المرحوم نعمان ثابت : « وكان سلمان ابن ربيعة الباهلي اختصاصيا بامور الخيل ، فعينه الفاروق للتفتيش على خيول الجيش التي في الكوفة وكان سلمان هذا يسمى « سلمان الخيل » لشهرته وعنايته بتربيتها وتمرينها . كان القواد يوصون رجالهم ان يعتنوا بافراسهم مثل عنايتهم بنسائهم ؛ وقد اعترض عمرو بن الليث ـ على عهد الخليفة المعتمد « سنة ٢٧١ » ـ فارسا كانت له دابة في غاية الهزال فقال عمرو : يا هذا تأخذ مالنا تنفقه على امراتك فتسمنها وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الارزاق ، امض فليس لك عندي شيء . فقال له الجندي : « جعلت لك الفداء لو اعترضت امراتي لاستسمنت دابتي » فضحك عمرو ، وامر باعطائه ، وقال : « استبدل بدابتك » .

وخطب عمرو بن العاص بجنده فقال : « ... ولا اعلمن ما اني رجل قد اسمن نفسه واهزل فرسه واعلموا انني معترض بالخيل كاعتراض الرجال ، فمن اهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك » * .

وكان للعباسيين ميادين كبيرة في الرقة والشماسية يدربون فيها خيولهم ويرسلونها فيها الى الحلبة ، فكان لهذه المباريات التي تقام في السباق اكبر الاثر في تحسين جنس الخيل »(٧) .

وبنى احمد بن طولون « المنظر » لعرض الخيل ، وكان عرض الخيل هذا اذ ذاك من عجائب الاسلام الاربع في ذلك العصر ، وهي : هذا العرض ، ورمضان بمكة ، والجمعة ببغداد ، والعيد بطرسوس . وكانت حلبة السباق في ايامهم تقوم مقام الاعياد ، لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة فيجلس الناس لمشاهدة ذلك كما يجلسون في الاعياد ، وتطلق الخيل من غايتها فتمر متفاوتة يقدم بعضها بعضا حتى يتم السبق كما يقول المقريزي في خططه .

ولشدة ولع واهتمام احمد بن طولون ـ وغيره من الخلفاء والامراء ـ كان يجد المتعة والسرور في الاكثار منها فقد خلف بعد موته من الخيل سبعة الاف فرس ومن البغال والحمير ستة الاف راس ، وخلف من الجمال عشرة الاف جمل كما اشتد غرام ابنه « خمارويه » فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاصطبلات وما اكثر اصطبلات خمارويه ! فقد جعل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفردا ؛ فكان لخيل الخاصي اصطبل مفرد ، ولدواب الغلمان اصطبلات عدة ، ولبغال القباب اصطبلات ولبغال النقل غير بغال القباب اصطبلات وللنجائب والبخاتي اصطبلات(٨) .

وقبل ان نستطرد في ذكر الفروسية العربية والاسلامية نحب ان نتكلم عن الفتوة العربية والاسلامية فنقول :

الفتوة : في اللغة : السخاء والكرم ، وفي اصطلاح اهل الحقيقة هي ان تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والاخرة »(٩) .

---

* لقد حفظ لنا الشعر العربي كذلك اسماء تلك الجياد التي رافقت الابطال الصناديد ، فجواد جذامه « عصا » وجواد عنترة « ابجر » وجواد حاتم « جلاب » واما زيد الخيل فكان يقتني « لاحق » و « ذيول » و « كامل » و « ورد » و « كميت » و « هطال » .. ونستطيع ان نصنف هذه الاسماء الى :

ا ـ اسماء الوان : كالابلق والادهم والسجدي ومرجان وياقوت وورد وليل ومر .

ب ـ خصائص مميزة : مثل اعوج ، العطاس ، ذو المثال ذو اللمة .

ج ـ صفات العنفوان والسرعة : مثل صابر ، ناج ، سابق ولم يطلق العرب على جيادهم اسماء الناس ـ فقد كانوا يحفلون لكل ذي قدر قدره ـ وانما كانوا يطلقون عليها احيانا اسماء الحيوان مثل : الغزالة ، النعامة ، غراب ، حمامة ، او صفات انسانية مما يشير الى النسب او الذكاء او الصداقة مثل : عتيق ، منصور ، مسعود ، كامل ، منزه ، ناصح ، الصاحب .

(٦) اللن العربي في صدر الاسلام ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

* ذكر المقريزي في خططه : ان الخلفاء كانوا يشترطون على عمال مصر في تقليدهم الخيل العربية واجلال الخيل والبغال والحمير ! ومن لطيف ما ذكره ايضا ان العرب كانت لهم بانساب الخيل عناية واحتفاظ حتى كان لانسابها جرائد مثبتة في الديوان كانساب الناس .

(٧) الجندية في الدولة العباسية ص ١٤١ .

(٨) امين الخولي « الجندية والسلم والقع ومثال » ص ٧٠

(٩) الجرجاني « التعريفات » ص ١٤٤ .

وعرفها ابن المعمار بقوله :

« اعلم ان الفتوة اسم موضوع ؛ يقال على انحاء :

احدها : انه في اصطلاح العرف عبارة عن صفات محمودة اتسم بها الشخص على وجه مخصوص وامتاز بها عن ابناء جنسه ، فاوجبت له اسم فتى ويشهد لذلك قوله تعالى : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم » وايضا قوله تعالى : « اذ اوى الفتية الى الكهف ... » .

ويطلق اسم الفتوة على الصبي والحديث السن ، قال تعالى : « قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم » .

ويطلق على الصاحب والخادم ؛ قال تعالى : « وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم » وقوله تعالى : « تراود فتاها عن نفسه » وقال تعالى : « واذا قال موسى لفتاه آتنا غداءنا » .

ويطلق ايضا اسم الفتوة على الذكر والانثى يقال للرجل فتى وللمراة فتاة ، وللطلا من الدواب فتى . وتطلق الفتوة في العرف ايضا على الرجل الجواد والشجاع » (١٠) .

اما في السنة النبوية فقد ورد انه «ص» قال بعد غزوة احد « لا سيف الا ذو الفقار ولافتى الا علي » .

وعن جعفر الصادق عن ابيه عن جده قال : قال رسول الله «ص» : « لفتيان امتي عشر علامات ، قال : يارسول الله : وهل لامتك فتيان ؟ قال عليه السلام : نعم ، واين الفتوة الاولى من فتوة امتي ؟ قال : وما تلك العلامات يارسول الله ؟ قال عليه السلام : صدق الحديث والوفاء بالعهد واداء الامانة وترك الكذب والرحمة لليتيم واعطاء السائل وبذل النائل واكثار الصنائع وقري الضيف ورأسهن الحياء » .

وبمرور الوقت والزمن اتسع معنى الفتوة وخاصة بعد الصدر الاول للاسلام فاصبحت تعني الايثار والمحبة والعطف على الكبار والفقراء ومساعدة المحتاجين . وقد حدد هذا المعنى الشاعر العربي حيث قال :

فان فتى الفتيان من راح واغتدى
لفير عدو او لنفع صديق

(١٠) الشيخ ابن المعمار « الفتوة » تحقيق مصطفى جواد واخرين ص١٣٠-١٣٢ باختصار .

قال الحسن في الفتوة : كان الفتى اذا نسك لم نعرفه بمنطقه وانما نعرفه بعمله . وقال معاوية : « الفتوة ان توسع على اخيك من مال نفسك ولاتطمع في ماله وتنصفه ولاتطالبه بالانصاف » ، وتكون تبعا له ولا تطلب ان يكون تبعا لك ؛ وتحمل منه الجفوة وتستكثر قليل بره وتستقل مايصل منك اليه » .

والفتى : الشاب ، فالفتوة هي القوة لان الشباب مصدرها عادة قال ابن قتيبة : « ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث وانما بمعنى الكامل الجزل من الرجال ؛ يدل على ذلك قول الشاعر :

ان الفتى حمال كل ملمة
ليس الفتى بمنعم الشبان(١١)

ولما مات مخلد بن المهلب وهو ابن سبع وعشرين وكان شهما نبيلا صلى عليه عمر بن عبدالعزيز ثم قال : « اليوم مات فتى العرب » وقال البيروني : الفتوة بشر مقبول ونائل مبذول وعفاف معروف واذى مكفوف .

وسئل احدهم عن الفتوة فقال : فضيلة تأتيها ولا ترى انك فيها ومن القصص الطريفة التي تروى عن هؤلاء الفتيان والتي فيها من نبل الاخلاق وكرائم السجايا ما يعجز عن وصفها القلم ! واليك اخي القارىء قسما منها :

روى ان صوفيا تزوج امراة ثم ظهر عليها الجدري قبل الدخول بها فتعامى الصوفي حتى لا يجرح شعورها !! فلما ماتت فتح عينيه ، فقيل له في ذلك ، فقال : لم اعم ولكن تعاميت حذرا ان تحزن فقيل له سبقت الفتيان !

وحكوا ان جماعة من الفتيان زاروا فتى فدعا غلامه ليقدم الاكل لهم ، فابطأ الغلام فسأله الرجل : لم ابطأت ؟ فقال الغلام : « كان عليها نمل ، فلم يكن من الادب تقديم السفرة الى الفتيان مع النمل ، ولم يكن من الفتوة طرد النمل عن السفرة ، فلبثت حتى دب النمل فقال له صاحب البيت قد دققت يا غلام في الفتوة .

ومما يحكى عن الفتيان ونهامتهم وايثارهم الحكاية التالية : بلغ فتى ان رجلا وقع اسيرا في حرب ، وان آسره يطلب لاطلاق سراحه مبلغا كبيرا من المال ، وان امه قد حزنت عليه حتى ذهب بصرها . فارسل الى آسره من يدفع الفداء ، فلما علم آسره ان الفتى هو الذي ارسل المبلغ ولا صلة

(١١) احمد امين « الصعلكة والفتوة في الاسلام » ص ٥ .

له بالاسير من قرابة او صداقة ، وانما هي الشهامة ونبل الاخلاق ، ابي الا ان يكون في مستواه في كرم النفس ، فاطلق سراح الاسير ولما علم الفتى بذلك اعطى المال لام الاسير تتصرف فيه كما تشاء تعويضا لها عن حزنها الذي ذهب ببصرها .

وان بعض الاجواد جاءه قاصد يلتمس منه شيئا فلم يجد ما يعطيه ، فقال له : ياهذا احضرني عند العاصي وادع علي بعشرة الاف درهم ، فاني اعترف لك بها فاحبسني عليها فان اهلي لا يخلوني بيت في الحبس . ففعل الرجل ذلك فسمع اهله . فحضروا وادوا عنه الى الرجل عشرة الاف درهم واخرجوا صاحبهم فقال :

يعاتبني في الدين قومي وانما
ديوني في اشياء تكسبهم حمدا

ويحكى ان بعض الفتيان كان له غلام فطلبه السلطان منه وكان قد استجار الغلام بالفتى ، فلم يسلمه ، فضرب الف سوط على ان يسلم الغلام فلم يفعل ، فاتفق ان الرجل في تلك الليلة ، احتلم في الحبس وكانت ليلة كاد ان يميع فيها من البرد واوشك ان يجمد فيها الخمر ويخمد الجمر ، فاستيقظ الرجل وطلب الماء ليغتسل فوجده قد جمد فكسر الجليد واغتسل به ، فقيل له : لقد خاطرت بنفسك ! فقال : اني استحييت من الله تعالى ، اصبر على الف سوط لاجل مخلوق ولا اصبر على برد الماء لاجل الخالق(١٢) . واخيرا وليس اخرا هل ننسى حكاية حذيفة العدوي بعد انتهاء معركة اليرموك ! ولنسمع الى حذيفة نفسه يحدثنا بها قال : « انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لي ومعي شن فيه ماء فقلت ان وجدت به رمقا سقيته ، وكان في ذلك العام قد عدم الحاج الماء وهلك اكثر الناس من شدة العطش ، فوجد ابن عمه قد اشرف على التلف ، فهم ان يسقيه ، فتأوه شاب في جنبه من شدة العطش فقال الرجل لابن عمه : اسق هذا الشاب ، فاذا هو هشام بن العاص. قال : فتقدمت الى الشاب وقلت له اشرب فاشار الى ان اسق هذا الشيخ فتقدمت الى الشيخ ، فقال ارجع الى ابن عمك فانه والله اشد حاجة منا . قال : فرجع الى ابن عمه فوجده قد مات ، قال : فجئت الى الشاب فوجدته قد قضى نحبه ، قال فتقدمت الى الشيخ فوجدته قد احتضر فآثر كل واحد منهم صاحبه ومات الكل ولم يشربوا » .

(١٢) ابن العمار « الفتوة » ص ٢٨٠ .

وذكر ابن قدامة المقدسي في كتابه « مختصر منهاج القاصرين ص ٢٢٤ : قال « اجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين ايديهم ارغفة معدودة لاتكفيهم فكسروا الرغفان واطفاوا السراج وجلسوا للاكل فلما رفع الطعام اذا هو بحاله لم ينل احد منهم شيئا ايثارا لاصحابه !!

ونحن سقنا تلك التعريفات والحكايات عن الفتوة والفتيان وهدفنا هو كشف النقاب عن الفتوة الحقيقية واهدافها النبيلة التي وجدت منذ انتشار الاسلام وزادت وقويت بكثرة المسلمين وازدياد عددهم . كما اننا قصدنا تلك الفتوة التي اعاد سيرتها الاولى بصورة منتظمة الخليفة الناصر لدين الله بعد ان شاهد ان الفتوة التي الفها قبل سنة ٦٠٤ هـ لايمكنها ان تستمر ، لانها خرجت على التعاليم المقررة لها ، فامر بحلها وبتكوين الفتوة من جديد سنة ٦٠٤ هـ .

قال تاج الدين علي بن انجب المعروف بابن الساعي البغدادي المؤرخ الخازن في حوادث سنة ٦٠٤ هـ : « في هذه السنة اهدرت الفتوة القديمة وجعل امير المؤمنين الناصر لدين الله رض القبلة في ذلك والرجوع اليه فيه وكان هو قد شرف عبدالجبار بالفتوة اليه، وكان شيخا متزهدا فدخل في ذلك الناس كافة من الخاص والعام وسأل ملوك الاطراف الفتوة ، فنفذ اليهم الرسل ومن البسهم سراويلات الفتوة بطريق الوكالة الشريفة وانتشر ذلك ببغداد وتفتى الاصاغر الى الاكابر . واتفق ان الفاخر العلوي كان رفيقا للوزير ناصر بن مهدي ، وكان له رفقاء فاختصم احد رفقائه مع رفيق لعز الدين نجاح الشرابي ، وصار بذلك فتنة عظيمة بمحلته حتى تجالدوا بالسيوف . فانتهى ذلك الى الامام الناصر لدين الله فانكره وتقدم الى الوزير يجمع رؤوس الاحزاب وان يكتب في ذلك منشور يؤمرون فيه بالمعروف والالفة وينهون عن التضاغن ويقرأ بمحضر منهم ويشهد عليهم بما يتضمنه ، فمن خالفه ، اخذ سراويله وابطلت فتوته وعوقب بما يرى من العقوبة واحضر الفاخر العلوي ، وقال الوزير للحاضرين اشهدوا علي اني قد نزلت عنه وقرأ المنشور عليهم المكين ابو الحسن محمد بن محمد كاتب ديوان الانشاء المعمور . هذا من جهة ومن جهة اخرى اننا لم نقصد من ذلك الشطار والدعار والعيارين ومن اليهم من الفتيان الذين انغمسوا في الرذائل والفساد الى اذقانهم فلم يحجموا عن رذيلة(١٣) .

(١٣) المصدر السابق ص ٢٢ .

واتخذ اللصوص وقطاع الطرق « الفتوة » سبيلا الى تلصصهم وسلبهم ونهبهم ، وقد ذكر بعض المؤرخين ان ابا نصر الفارابي الفيلسوف الشهير من اهل القرن الرابع للهجرة كان يرتحل من دمشق الى عسقلان فاستغفله والاصح استقفاه جماعة من اللصوص الذين يقال لهم الفتيان فقال لهم ابو نصر : خذوا ما معي من الدواب والاسلحة والثياب وخلوا سبيلي ، فابوا ذلك وهموا بقتله فاضطر ابو نصر الى محاربتهم ، فقتل هو ومن كان معه . فوقعت هذه الحادثة افجع وقع في قلوب امراء الشام ، فتعقبوا اللصوص الفتيان او الفتيان اللصوص وصلبوهم على جلدوع عند قبر الفارابي !

ومن افعالهم بعد مقتل الامين وانتشار الفوضى ببغداد قامت من العامة جماعات سنة ٢٠١ بحفظ النظام والسيطرة على الوضع . وفي سنة ٢٣٤ استعان ابن شيرزاد بالعيارين والعامة لمحاربة معز الدولة البويهي .

وفي سنة ٣٦١ هـ اثر فضائع البيزنطيين على الحدود ، استنفر سيكتكين العامة والعيارين بامر من الامير البويهي لمحاربة البيزنطيين « فثار من العامة عدد كبير باجناس السلاح والرماح والقسي حتى استعظم ماشدوه منهم » وبدل ان يذهبوا للغزو ، وجدوها فرصة للخروج على السلطة « وعجز السلطان عن اصلاحهم واطفاء ثورتهم » .

وفي عام ٣٨١ هـ اشتد نشاط العيارين وكثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطان وتكرر الحريق في المحال وتمكن الفتى العيار « البرجمي » وهو ابرز متقدمي العيارين ان يكشف السلطان البويهي وان يسيطر على بغداد مدة خمس سنوات – من ٤٢١–٤٢٥ هـ (١٤) .

وظلت فتنة العيارين والشطار ومشاغباتهم تتكرر كلما ضعف الحكام والمسيطرون على زمام الامور وقد هدأت فتنهم مؤقتا بعد مجيء السلاجقة ثم استانفوا حركاتهم بعد ذلك !

هذا ولا يمكننا ان نذكر جميع الفتن والاضطرابات التي كان سببها المباشر العيارون ولكننا سنقتصر على بعض تلك السنين ذاكرين زمنها .

ففي رجب (٤١٥) تجددت فتنتهم واخذوا يكبسون دور الناس ليلا ونهارا ويقتلون من يريدون ظاهرا وعلنا وكانوا يدخلون على الرجل فيطالبونه بذخائره ويستخرجونها منه بالضرب كما يفعل المصادرون ولا يجد المستغيث مغيثا ، واحرقوا دار الشريف المرتضي على نهر الصراة فانتقل الى درب جميل واحرق الاتراك طاق الحراني من نواحي مدينة المنصور لفتنة جرت بينهم وبين العيارين والعامة ، وغلت الاسعار بذلك غلاء فاحشا .

واستانفوا حركاتهم في الاعوام « ٤٩٠ و ٤٩٣ و ٤٩٧ و ٥١٢ و ٥١٤ و ٥١٥ و ٥٣٠ – ٥٣٨ – ٥٥٢ و ٥٦٣ و ٥٦٥ » واستمروا في مشاغباتهم الى مجيء الناصر لدين الله .

ففي سنة ٥٦٢ مثلا استفحل شر الفتيان العيارين واجتمعت كل جماعة منهم بامير من امراء الدولة السلجوقية او ابن وزير او كبير فاخذوا اموال الناس ظاهرا ، وكانوا يكبسون الدور بالليل وبايديهم الشموع ويدخلون الحمامات وقت السحر فيأخذون ثياب المستحمين ويدخلون الخانات ويتهددون اصحابها بالحرق وقتلوا جماعة من رجال الشرطة حتى صار الناس لا يخرجون من دورهم بعد المغرب ، ورتب العيارون لانفسهم جواسيس على الناس يدلونهم على اصحاب الاموال ، واغلق الناس دكاكينهم وخاناتهم وكسروا منابر الجوامع احتجاجا على اختلال الامن واغلقوا ابواب الجوامع(١٥) .

وقد تنوعت احزاب الفتوة وتعددت اسماؤها : فكان منها الخليلة ولعلها منسوبة الى ابراهيم الخليل عليه السلام ، والرهاصية وهي منسوبة الى عمر الرهاص والشجينية والنبوية ، ولكل من هؤلاء مذهب ذهبوا اليه . وظهرت في اوائل القرن الخامس للهجرة في البلاد الشاميه فتوة عرف اصحابها « بالاحداث » واشهرهم احداث حلب ، وقد تدخل هؤلاء في السياسة طلبا للرئاسة وزاولوا الحروب والفتن فكانوا ينصرون اميرا ويخذلون اخر وكانوا يتوزعون السلطة فيما بينهم عندما يسيطرون في المدينة ويفرضون الضرائب ويحفظون الامن يقول الدكتور عبدالعزيز الدوري : « نشطت حركة الاحداث في دمشق وحلب بصورة خاصة وان عمت المدن الاخرى ، وكون الاحداث شبه ميليشيا شعبية واتخذوا موقفا عدائيا او سلبيا من السلطة الخارجية ونجحوا احيانا في فرض سيطرتهم وتولية رئيس منهم على مدينة كما حصل في دمشق حين تولاها « ال الصوفي » بين « ٤٨٨ – ٥٤٨ هـ » وفي

(١٤) د . عبدالعزيز الدوري « مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي » ص ٧٩ باختصار .

(١٥) عمر رضا كحالة « دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية » ص ٢٧ .

حلب « آل بديع » وفي امد « الاسرة النيسابورية » في مطلع القرن السادس وكانوا احيانا يسندون اميرا ثائرا « كما في صور سنة ٣٨١-٣٨٨ هـ » او يسندون الامير المحلي كما فعلوا مع المرداسيين في حلب ضد الفاطميين . وكان للاحداث تنظيمهم ولهم رؤساء يدعى احدهم رئيس ونقيب ومقدم ، كما لاحظنا للعيارين ، وحين يسيطرون في مدينة يتوزعون السلطة في المحلات كما يفعل العيارون وكانوا يفرضون ضريبة على الاسواق ويتولون حفظ الامن وكانوا على العموم يعبرون عن نظرة اهل المدينة تجاه السلطة الخارجية »(١٦) .

وقد تضررت الاسواق بحركات العيارين والشطار وان كانوا في الغالب لا يتعرضون لصغار التجار او الصناع وانما تعرضوا لكبار التجار والاغنياء ويرون انهم اناس جشعون طماعون سيطروا على الاموال دون ان يؤدوا حقها زكاة مصدقة وغيرها وانهم استغلوا مناصبهم ومراكزهم في جميع الاموال والاثراء وان السلطة كانت معهم تسندهم وتحميهم بالحق وبالباطل ، بل ان السلطة بالاضافة الى مساندتها لهم كانت في اغلب الاحيان ظالمة !!

ان حركتهم ترجع الى التباين الاقتصادي الطبقي وسوء الوضع المعاشي للجماهير والعوام وان حركتهم كانت ضد الاسياد السياسيين وضد التجار واصحاب الاموال وانهم وجهوا هجومهم الى الشرطة الشخصيات الكبيرة والبارزة والى الاغنياء بالاضافة لانهم من اعوان السلطة وعليهم ترتكز وكذلك الى الاسواق والمحلات والدور وغير ذلك !

يقول الدكتور الدوري : « اما اثر العيارين فكان افظع من غيره ومع اننا نشعر بان بعض من اشترك في حركاتهم كانوا مدفوعين بحب الغنيمة الا انهم كجماعة يمثلون تكتل طائفة من الطبقة العامة نتيجة التباين الاقتصادي الطبقي وسوء الوضع المعاشي للعوام والفوضى السياسية . وماحركتهم الا ثورة ضد الاسياد السياسيين وضد اسياد المال . وكانت هجماتهم موجهة بالدرجة الاولى الى بيوت المثرين والاسواق واصحاب الشرط والشخصيات الكبيرة. وكانت للعيارين مبادىء اخلاقية وطريقة يسيرون عليها وماحركة الفتوة فيما بعد الا سليلة حركتهم .

يقول ابن الجوزي : انهم « يسمون طريقتهم الفتوة وربما حلف احدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب » ومن مبادئهم الاخلاقية ان « الفتى لا يزني ولا يكذب ويحفظ الحرام ولا يهتك ستر امراة »*

فالعفة وعدم المجون من الصفات الاساسية عندهم وهم يؤكدون على الامانة ومن عناصر فتوتهم الرفق بالفقراء والضعفاء فالبرجمي العيار كان « ... فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لامراة ولا الى من يستسلم اليه » وكان يحمي النساء ولايسمح بالتعرض لهن ويذكر ابن حمدون انه « فيه فتوة وظرف ... لا يفتش امراة ولا يسلبها » .

والصبر الشديد على احتمال الاذى ويظهر ان المؤرخين لم يفهموا روح حركتهم فسموهم لصوصا منحطين . واساس الحركة كما بينا اقتصادي ناتج عن التباين في الثروة .

يروي عن ابن حمدون الذي كان يقطع الطرق « انه اذا قطع لم يعرض لاصحاب البضائع القليلة التي تكون دون الالف . واذا اخذ ممن حاله ضعيفة قاسمه عليه فترك شطر ماله في يديه » اليس في هذا ما يدل على ان هجومهم كان ضد الاغنياء ؟ ولم يعدموا حجة فقهيه لنهب اموال الاغنياء !! فهذا احد قطاع الطرق يبرر عمله قائلا : « ان هؤلاء التجار لم تسقط عنهم زكاة الناس لانهم منعوها وتجردوا فتركت عليهم فصارت اموالهم بذلك مستهلكة واللصوص فقراء اليها . فان اخذوا اموالهم ــ وان كره التجار ذلك ــ كان ذلك لهم مباحا لان عين المال مستهلكة بالزكاة وهم مستحقون للزكاة شاء ارباب الاموال ام كرهوا(١٧) .

وممن اشتهر بالفتوة اسحاق بن خلف المعروف بابن الطبيب البهراني فكان شانه شان الفتوة ومعاشرة الشطار والتصيد بالكلاب ومحبة اصحاب الطرب والغناء .

قال فيه بعض المؤرخين : « كان رجلا شانه الفتوة ومعاشرة الشطار والتصيد بالكلاب وايثار اصحاب الطنابير وكان من احسن الناس انشادا ، كانه يتغنى بشعره وكان اذا راجعك الكلام لم تكد تسأم من مراجعته من حسن الفاظه . حبس مرة في جناية جناها ، فقال الشعر في السجن ثم ترقى في في ذلك حتى مدح الملوك ودون شعره ولم يزل على

---

(١٦) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ص ٧٩ ــ ٨٠ .

* هذه الصفات وغيرها كان يتحلى بها الفتيان الحقيقيون واصحاب الفتوة كما سماهم ابن الجوزي وربما اتصف بها عدد قليل من العيارين والشطار (!!) فالبيتهم فان هذه الصفات تتناقض مع سلوكهم وافعالهم واعمالهم !

(١٧) د . عبدالعزيز الدوري « دراسات في العصور العباسية المتاخرة » ص ٢٨٢-٢٨٤ .

رسم الفتوة وضرب الطنبور الى ان توفي في حدود الثلاثين ومائتين .

واشتهر ابو الفاتك بن عبدالله الديلمي الملقب بقاضي الفتيان : وكان يسكن بباب محلة الكرخ بالجانب الغربي من بغداد ويجتمع عنده الفتيان وهو يملي عليهم اداب الفتوة لذلك الزمان ؛ ومن ذلك قوله : « الساقي لا ينبغي ان يكون محدثا ولا مغالطا ولا محابيا ولا حريصا ولا مفكرا ولا متكئا ولا محتبيا ولا مشتغلا بامر غيره » وله فصول في اداب الفتوة والفتي البرجمي ــ كان من العيارين ــ هو من ابرز متقدميهم وقدتمكن ان يكسف السلطان البويهي وان يسيطر على بغداد مدة خمس سنوات « ٤٢١ ــ ٤٢٥ هـ » وبلغ من عجز الحكومة ان العوام ثاروا بجامع الرصافة ورجموا الخطيب وقالوا : ان خطبت للبرجمي والا فلن تخطب لخليفة ولا لملك . وتعهد سنة ٤٢٥ بحفظ الامن فكان يجبي الضرائب من الاسواق والقيان لنفسه ! وكان فيه فتوة وله مروءة ولم يعرض لامراة ولا الى من يستسلم اليه وكان يحمي النساء ولايسمح بالتعرض لهن !!

تطور نظام الفتوة :

هذا وقد تطور نظام الفتوة فاصبح لها قوانين وشروط ، فلا تصبح فتوة الفتى الا بتلك الشروط ، ويمكن اجمالها فيمايلي :

١ ــ البلوغ : فطنة وكمال البنية واستنارة العقل وكمال تصرفه ، وهنا ترد احكام بالمميز والمراهق والطفل الصغير ، وهل تصح فتوتهما ام لا ؟

٢ ــ الذكورة : فطنة الشرف والكمال .

٣ ــ العقل : طريق ادراك المعلومات والاهتداء الى الخير وتمييزه عن الشر والكف عنه .

٤ ــ الدين : هو الاسلام وهو شرط في صحة الفتوة .

٥ ــ استقامة الحال : تعني كمال ذكورة المرء فلا يكون مخنثا او خنثى .

٦ ــ المروءة : والقصد منها اجتناب الفتى للمحارم والحياء من فعل القبائح والاتصاف بما يحمل على الاعمال الكريمة .

وبعد التأكد من حصول الشروط المقررة في طالب الدخول الى الفتوة يجري ضمه الى الجماعة باحتفال عام يحضره الفتيان وفي بداية الاحتفال يتناول الفتى كاسا من الماء المملوح ويشربه ثم ينهض ويلقى خطبه ...

والسبب في شرب الماء المملوح ، ان الملح في نظرهم من المواد المقدسة فهو يصلح كل ما فسد ويستعمل في اكثر الاغذية والاطعمة ، وله فوائد اخرى . والحكمة عندهم في شربه ممزوجا بالماء ، لان الماء عذب والملوحة ضد العذوبة ، فكأن فيه اشارة الى ان الفتى ينبغي ان يصبر على البأساء والضراء وان يتحمل البلاء ويشكر على النعماء وان يحمل الرفيق كل رحب ومضيق .

اما قوانينهم فكانوا يطبقونها على المخالف مهما كانت منزلته فاذا نظر الفتى الى غلام حسن الصورة تقطع اذنه !!

فقد ذكر الشابشتي ان المتوكل العباسي نفى ابا عبدالله بن حمدون الى تكريت لامر نقمه عليه في شان غلامه « شاهك » ثم بعث اليه رجلا على البريد فلما دخل عليه ، قال له : جئت في شيء ما كنت احب ان اجيء في مثله ، فقال ابن حمدون : ماهو ؟ قال امر امير المؤمنين بقطع اذنك ، وقال لي : قل له : لست اعاملك الا كما يعامل الفتيان فقطع غضروف اذنه من خارج ولم يستقصه .

وفي وجه آخر للخبر ، انه دخل عليه غلام فائق الحسن فاثاره ابو عبدالله ابن حمدون ونظره . فقال له المتوكل : ماحكم الفتيان في الفتى اذا تعرض الغلام الفتى ؟ قال : قطع اذنه . قال المتوكل : فبهذا الحكم نحكم عليك ! وقطع اذنه(١٨) .

عود على بدء : بعد ان اخذنا فكرة عامة عن العيارين والشطار وغيرهم من الذين سموا انفسهم بالفتيان ! نعود الى الفتوة العربية الاسلامية لنذكر مرة اخرى ونؤكد على انها وجدت منذ ظهور الاسلام واستمرت حتى اواسط القرن الثالث للهجرة ــ التاسع الميلادي ــ وذلك لوجود الخلفاء الاقوياء في هذه الفترة ! وكانت المثل الاعلى للعربي والمسلم في حياته . الا ان مفهومها تغير بعد ذلك التاريخ ، فقد شوه سمعتها ومعناها الاصيل العيارون والشطار والشقاة ومن اليهم من اللصوص وقطاع الطرق فدخل في نضمامها المنكر والقبح مثل هتك اعراض الناس واغتصاب اموالهم والاعتداء على حقوقهم وغيرها من الافعال والاعمال الرديئة والسيئة وذلك بعد ان ضعفت الدولة العباسية ــ بضعف خلفائها ــ وتنازعتها الاهواء والنحل واستبد بشؤونها المتنفذون

---

(١٨) د . مصطفى جواد « الفتوة واطوارها » مجلة المعلم الجديد الجزء الرابع نيسان ١٩٥٩ .

وصار الخليفة العوبة بيد الامراء والقادة الاعاجم من فرس وترك وديلم وغيرهم ...

وفي ذلك يقول الاستاذ عمر الدسوقي : «واذا صادف أن انحرفت بعض فرق الفتيان او بالاحرى العيارون والشطار وما اليهم ، فهذا لايعني ان هؤلاء الشطار والعيارين هم الذين مثلوا او يمثلون الفتيان او الفتوة الاسلامية . فالفتوة الاسلامية كانت موجودة من ايام الخلفاء الراشدين وبني امية وردحا طويلا من الزمن ايام بني العباس وكانت الفتوة حتى ذلك الوقت صفة فردية يتحلى بها الافراد وتظهر في اعمالهم وان كانوا من الكثرة بحيث يخيل لمتصفح التاريخ الاسلامي ان المسلمين جميعا من الفتيان الامجاد في شجاعتهم وسخائهم وضبط نفوسهم عند الغضب وسماحة عقولهم وجهرهم بالحق وحمايتهم للضعفاء ووفائهم بعهودهم ولكن الفتوة حتى ذلك الوقت لم تكن نظاما ذا تعاليم خاصة وفلسفة يدعى اليها وينتظم الناس تحت لوائها وذلك لان الاعراب لم يكونوا في حاجة لمن يلقنهم معانيها ، اذ وجدت بالفطرة والوارثة ، وجاء الدين والجهاد في سبيل الله فمكنهامن قلوبهم وثبتها في طباعهم ، ولكن الامة العربية حين صرفت عن الجندية وحابى خلفاء بني العباس الاعاجم من فرس وترك وديلم ومن على شاكلتهم بالجندية تجلت فتوة العرب في صورة اخرى فيها الكرم والسماحة والشجاعة الادبية بيد ان هناك نوعا اخر من الفتوة صبغ بصبغة صوفية الصفات العربية الكريمة التي ذكرناها انفا بتعاليم الصوفية ، وكان اول ظهور هذا النظام من الفتوة في دائرة الحسن البصري الذي اطلق «أيوب بن ابي تميمة» « سيد الفتيان» وكان الحسن من اوائل الذين مهدوا للتصوف الاسلامي(١٩) .

ونختم كلامنا عن الفتوة الاسلامية فنقول بانها كانت من اسبق الجماعات الاخرى في الاغراض الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، ويمكن اجمال تلك الاغراض بالنقاط التالية :

١ ـ اتخاذ اللباس الخاص وهو ماكان معروفا بسراويلات الفتوة فكل ما عرف فيما بعد من اتخاذ الجماعات والجمعيات للثياب المميزة كالقمصان الزرقاء والسوداء والخضراء انما هو تقليد لتلك الجماعة .

٢ ـ المرانة على الالعاب الرياضية والفروسية كما نرى في جماعات الكشافة والجماعات التي تقصد الى اغراض قومية او سياسية .

٣ ـ اتخاذ الشارة الخاصة المميزة وقد كانت عند اهل الفتوة محصورة في لبس السراويل وشرب كاس الفتوة .

٤ ـ الاتجاه الانساني في عمل الخير وايثار الضعفاء والمحتاجين والاخذ في ذلك بالنظام التعاوني بين افراد الجماعة في اكرام الغريب واقراء الضيف وقضاء حوائج الناس .

٥ ـ العمل على مقاومة الشر والعدوان مهماكان مصدرهما والاستعداد لذلك بالسلاح والتدريب على استعماله والمهارة في ذلك(٢٠) .

الفروسية : من اظهر مميزات الدول الاسلامية ، وهي ان دلت على القوة والرجولة والشجاعة فهي ضرب من ضروب الرياضة التي زاولها المسلمون بصورة عامة والفرسان ومن اليهم بصورة خاصة ، واقدم العاب الفروسية التي زاولها العرب والمسلمون هي لعبة الصولجان ، وقد ذكر المؤرخ الكبير المسعودي ان هارون الرشيد اول خليفة لعبها ، وقد اهتمت الدول الاسلامية بهذه اللعبة وشجعتها فقد بنى احمد بن طولون ميدانا خاصا للعب الصولجان كما كان الخليفة الفاطمي العزيز بالله مولعا بها كما عنى باللعب بها ملوك الدولة الايوبية .

واهتمت الدولة الفاطمية بالعاب الفروسية واعدوا لها أياما عرفت بعيد الحلقة . وقد نبغ في العاب الفروسية صبيح بن الافضل شاهنشاه ، والعادل ابو شجاع بن زريك بن الصالح طلائع . وكانت لهما جولات موفقة في ميادين الفروسية .

كما اهتمت الدول الاسلامية والامراء والخلفاء والسلاطين بتربية الخيل واجروا السباقات لها باعتبارها ضربا من ضروب الفروسية فقد سابق الرسول «ص» بخيله وحاز قصب السبق فرس له اسمه « الظراب » فاجاز راكبه ببرد يماني ، وقد تناولت الشريعة الاسلامية احكام السباق والمراهنة عليه وعقدت فصولا في اضمار الخيل وشروط المراهنة . واشترطت اتحاد الجنس وتعين الغاية والتساوي في الموقف . كما عقد علماء اللغة فصولا في اسماء سوابق الخيل نذكرها مع مايرادفها في العصر الحديث ، فقالوا للسباق اربع احوال

(١٩) عمر الدسوقي « الفتوة عند العرب او احاديث الفروسية والمثل العليا » ص ٢٢٠ .

(٢٠) محمد فهمي عبداللطيف « الفتوة الاسلامية فرسان العرب ورعاة الانسانية » ص ٥٨ ـ ٥٩ .

لكل منها اسم ؛ فاذا سبق بعذاره فيسمى معذرا « راس قصيرة » وان سبق بصدره فهو مصدر « راس » وان سبق بجحبته فهو مجحب «رقبة» وان سبق وباين ما خلفه فهو المبرز ، ويقال جواد مقصب اي محرز قصب السبق . ووضعوا للخيل المتسابقة اسماء حسب دخولها ، فسموها السباق والمصلى والمقفى والتالي والعاطف والمزمر والبارع واللطيم . كما وضعت شروط للمتسابقين من حيث خفة الملابس ، وان لا تكون فضفاضة . وكانت حلبات السباق تجذب الشعب لمشاهدتها. وعنى الملوك باقتناء اصائل الخيل وتغالوا في اثمانها ودللوها ، فقد كان للوليد بن عبدالملك حصان اسمه « الذائد » لايدخل سائسه عليه بدون اذنه ، فكان يحرك له مخلاة فيها شعير ، فان سهل دخل عليه(٢١) !!

ووجد بمصر في الدولة الفاطمية طائفة من اهل برقه كانوا يجيدون ركوب الخيل . فيركضون بها وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت بطن الحصان وهو يركض ويعود فيركب من الجانب الاخر ، ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف !

ولم تقتصر عناية العرب والمسلمين بالخيول وتربيتها وتحسين نسلها بل وضعوا لها المصنفات والفوا فيها الكثير من الكتب الباحثة في امورها ومن تلك الكتب كتاب الخيل للخليل بن احمد الفراهيدي ولابن الاعرابي وابن السكيت وابن دريد وكتاب نسب الخيل في الجاهلية والاسلام واخبارها لابن الكلبي ، وكتاب الخيل للاصمعي وكتاب الخيل لابي عبيدة ، وقطر السيل في امر الخيل للبلقيني . السؤال والامنية في اعمال الفروسية خيل السباق. رسالة الفت برسم المقر العالي جوهر الخازنداري الملكي الاشرفي وكتاب حيلة الفرسان وشعار الشجعان لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل الاندلسي ؛ الحلبة في اسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والاسلام تاليف الفاضل محمد بن علي بن كامل وكتاب ارتباط الخيل وكتاب ابن اخي حزام في البيطرة الفه للمتوكل وكتاب البيطرة لليحصبي وكتاب الخيل للقاضي ابي القاسم علي بن محمد النجفي وهو كتاب لطيف. وكتاب الخيل لابن قتيبة ... الخ

فلو اخذنا كتاب حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل مثلا لرأينا ان المؤلف استطاع ان يتحدث عن الخيل وعدة الحرب كلها في كتاب واحد ، فلم يجعل كتابه في الخيل وحدها كما فعل ابو عبيدة والدمياطي قبله ، ولم يجعله في انساب الخيل العربية وحدها كما فعل ابن الكلبي ، ولم يجعله في السلاح وحده وانما جعل كتابه مزيجا من ذلك كله ولم يتعرض للناحية الفقهية في سقوط الزكاة في الخيل واحكام السباق عليها لان فكرة الجهاد والفروسية كانت الغالبة عليه اثناء التاليف واطال المؤلف في مادة الكتاب اللغوية لاعضاء الخيل وشياتها وصفات المتق فيها، واسماء اجزاء السيف والرمح والدرع والترس حتى كاد كتابه يكون معجما لغويا في هذه الناحية . وللكتاب ميزة اخرى ، انه لم يكتف بوصف ادوات القتال بل كثيرا ما نراه يصف طريقة العمل بها وادارتها والتعلم بها كما فعل في تعليم الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالقوس الافرنجية التي كانت مستعملة في بلاد الاندلس بدلا من القوس العربية .

ويستشهد المؤلف بالشعر ، ولا يكتفي بالمشهور المتداول من شعر المشرق بل يروي لشعراء من الاندلس ليست اسماؤهم متداولة لدينا(٢٢) .

اما انواع الفروسية الاخرى من رمي السهام ولعب بالرمح والمصارعة والتدريب على استعمال السيف وغيره فقد كان لفرسان المسلمين القدح المعلى في ذلك فنبغ منهم في كل نوع من انواع الفروسية وكان يسمى بها فالذي يجيد اللعب بالرمح عرف بالرماح والذي يجيد المصارعة سمي بالمصارع .... الخ .

وبلغ الاهتمام بالفروسية وتعليمها وتدوين قواعدها في مؤلفات قيمة بعضها مصور به صور الفرسان بملابسهم واسلحتهم بالالوان ومن تلك المؤلفات :

١ ـ كتاب الحيل للهرثمي الشعراني الذي الفه للخليفة المأمون في الحرب .
٢ ـ كتاب الاشميطي في الفروسية .
٣ ـ كتاب اداب الحروب وصورة العسكر الفه عبدالجبار بن عدي للخليفة المنصور .
٤ ـ كتاب اداب الحروب وفتح الحصون والمدائن وتربيص الكمين وتوجيه الجواسيس والطلائع والسرايا ووضع المسالح عمل الازدشير بن بابك وترجم الى العربية .
٥ ـ كتاب في دراسات السيوف ونعتها وصفاتها ورسومها وعلاماتها لباجهار الهندي .

(٢١) حسن عبدالوهاب « الفروسية في العصر الاسلامي بمصر» مجلة لواء الاسلام العدد ٤ ذو الحجة ١٣٦٦

(٢٢) دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية ص ٢٥ .

٦ ـ كتاب امر تدبير الحروب وما ينبغي للملك ان يتخذ من الرجال الشاناق الهندي .

٧ ـ كتاب السيوف التي كانت عند العرب ويغلب على الظن ان هذا الكتاب للفيلسوف الكندي.

٨ ـ تحفة المجاهدين في العمل بالميادين للامير لاجين بن عبدالله الذهبي الحسامي الطرابلسي « ٧٣٨ هـ ـ ١٣٣٧ م » .

٩ ـ كشف الكروب في معرفة الحروب لعماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري .

١٠ـ الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية لمحمد ابن منكلي نقيب الجيش في ايام الاشرف شعبان سلطان مصر عام ٧٦٤ـ٧٧٨ .

ولابن منكلي كتاب اخر اسمه « التدابير السلطانية في سياسة الصناعة الحربية » موجود في مكتبة المتحف البريطاني .

١١ـ الجهاد والفروسية وفنون الاداب الحربية لطيبوغا الاشرفي البكلميشي الرومي « ٧٧٠ـ ١٣٦٨ » .

١٢ـ الروض المسلوف .

١٣ـ الانيق في المجانيق لارنبغا الزردكاش « صانع الزرد » الفه العلاء منكلي بغا حوالي عام (٨٦٧ هـ ـ ١٤٦٣) .

١٤ـ نهاية السؤل والامنية في تعلم اعمال الفروسية لايعرف اسم مؤلفه لكنه يعرف انه من تصنيف بكتوت الرماح خازندار الملك الظاهر ، ويذكر بروكلمان ان مؤلفه هو محمد بن عيسى ابن اسماعيل الحنفي وانه كتبه حوالي سنة ٨٠٨/٨٠٩ هـ (١٤٠٥ م) للملك المنصور عزالدين بن برقوق .

١٥ـ كتاب تعبية الحروب وآداب الاساورة وكيف كانت ملوك الفرس تولي الاربعة الثغور من الشرق والغرب والجنوب والشمال .

١٦ـ كتاب العمل بالنار والنفط والزراقات في الحروب .

١٧ـ كتاب الدبابات والمنجنيقات والحيل والمكائد، قال ابن النديم رايته بخط ابن خفيف .

١٨ـ بغية القاصدين في العمل بالميادين الفه محمد بن الامير لاجين للامير سيف الدين الماردين صاحب حلب .

١٩ـ كتاب الفروسية الفه بدر الدين بكتوت الرماح الخازنداري نائب الاسكندرية .

٢٠ـ كتاب « انس الملا بوحش انقلا » لمحمد بن منكلي .

٢١ـ الحيل في الحروب ونصح المدائن وحفظ الدروب .

٢٢ـ تعبية الجيوش : وقف المستشرق « وستنفيلد » على مجموعة خطية في مكتبة غوطا فيها قطعة عربية كبيرة تبحث في تعبية الجيوش والحركات العسكرية في الحروب .

٢٣ـ كتاب « بغية المرام وغاية الغرام » وهي قصيدة في رمي السهام قدمها مؤلفها طيبوغا الاشرفي سنة ٧٧٠ هـ للسلطان الملك الاشرف منه نسخة في ليدن .

٢٤ـ الفروسية لابن القيم الجوزية .

٢٥ـ كتاب « غنية الطلاب في معرفة الرمح والنشاب » الفه طيبوغا الاشرفي .

٢٦ـ الاقوال الكافية في الفصول الشافية الفه الملك المجاهد علي بن داود الرسولي في اواسط القرن الثامن .

٢٧ـ « رمي القوس » في تعليم رمي القوس والنشاب وسبب رميه وتعليمه بشواهد من الكتاب والسنة . لم يذكر اسم المؤلف .

٢٨ـ خزانة السلاح كتاب في وصف السلاح لم يذكر عليه اسم مؤلفه ولكنه الفه باشارة من السلطان محمد شاه بن السلطان مظفر شاه سنة ٨٤٠ هـ .

٢٩ـ السؤل والمنية في تعليم الفروسية .

٣٠ـ الارجوزة الحلبية الفها ابو بكر الحلبي المنقار ٩٢٠ هـ وتقع في ٤٠٠ بيت .

٣١ـ القسي العربية ولا يعرف اسم مؤلفه .

٣٢ـ القول التام في فضل الرمي بالسهام للسخاوي.

٣٣ـ المسارعة الى المصارعة .

٣٤ـ الاس في العمل بالسيف والترس .

٣٥ـ السؤل والامنية في تعلم الفروسية .

٣٦ـ اثار الاول في ترتيب الدول للحسن بن عبدالله بدا بتاليفه سنة ٨٠٨ هـ .

٣٧ـ النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنايع المحتاج اليها في علم الميقات(٢٣) .

---

(٢٣) الجندية في الدولة العباسية ص ٢٨٥ وما بعدها . وكتاب السيف في العالم الاسلامي ص ١٩ وما بعدها وكتاب الفهرست لابن النديم وكتاب تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج٢ ص ٢٥٤ وما بعدها . ومجلة لواء الاسلام العدد الرابع ذو الحجة ١٣٦٦ .

وهناك عشرات المؤلفات في هذا الموضوع لانرى حاجة الى تعدادهـا وذكرها ناهيك عن كتب الادب والرحلات وتقويـم البلدان وغيرها والتـي لايخلو كتاب منها من ذكر السـلاح وانواعه والفروسـية وقوانينها .

بعد الـذي ذكرناه عـن الفروسية ، نعـود ونؤكد مرة اخرى على اننا عندما نذكر الفروسيـة ونقصدها على أنها نظام عسـكري ، فان هـذا النظام موجود في كل دول العالم وتتطلب وجوده ظـروف كثيرة من الامم والشـعوب التي تحارب غيرها وتلتحم معها في كثير من ميادين القتال والحرب، اما مغيرة تطلب الغزو والسـيطرة واما مدافعة عـن نفسـها تتطلب الحرية والعيشة الكريمة !

وانما نقصد بالفروسية ذات النظام الانسـاني والمبادىء الكريمة التي يجب ان يتحلى بها الانسـان الفارس او الفارس الانسـان وقد اقتضى العرف على عشرة شروط للفروسية وهي : التقوى والشجاعة ورقة الخلال وهبة الشعر والفصاحة والمهارة فـي ركوب الخيل والسـيف والرمح والقوس . وبلغـت الفروسية الاسلامية ذروة قوتهـا وازدهارها فـي مملكة غرناطة .

هذا عن الفروسية الاسلامية ، اما الفروسية الغربية فيمكننا ان نجمل تاريخها فيما يأتي :

١ ـ لم تظهر الفروسية الغربية متحلية بالشـرف والمثل الخلقية الا في القرون الوسطى وهـي قديمة لدى العرب قدم تاريخهم .

٢ ـ كانت في طبقة خاصة من الناس هـم النبلاء وامراء الاقطاع وفرسانهم وكانت صفة عامـة للعرب جميعا الذين لا يعرفون نظام الطبقات ولايقرونـه .

٣ ـ ابتدات اول الامر للحماية من وحشية محترفي الحرب ثم تدخلت فيها الكنيسة ثم انقلبت علـى الكنيسـة .

٤ ـ اخذ فرسان الغرب عن العرب كل تقاليـد الفروسـية الخلقية من شجاعة وكرم وسماحة وعفو عند المقدرة واحترام المراة ووفاء بالعهود وحماية الضعفاء . وان لم يصلوا الى ما وصل اليه العرب والمسلمون .

٥ ـ ظهر نظام الفروسية في اوربا اولا مصبوغـا بصبغة عسكرية بحتة من غير ان يتسـم بصفات خلقية شـريفة ثـم تحلى بالاخـلاق الشريفة بعد ذلك . ولدى المسلمين ظهـرت الفتوة الخلقية اولا ولم يظهر نظام الفتـوة الا متأخرا على عهد الناصر لدين الله حين راوا انفسهم في حاجة الى قوة ونظام يحفظان عليهم اخلاقهـم(٢٤) .

يقول ايتين دينيه : « ان الفروسية ونبالـة قصدها لـم يكن يعرفها الاقدمون مـن اليونـان والرومان ولكنها كانت معروفة عنـد العـرب في جاهليتهم ثم هذبها الاسلام وطهرها تطهيرا . وعلى اثره دخلت اوربا ووصلت الينا نحن الغربيين ، ولم يبق احد اليوم ينكر نسبتها الينا . وقـد ذكـر العالم المسيحي «بارتملي سان هيلار» في سياق حديثه عن القرآن ان العرب هم الذين يرجع اليهم الفضل على سادات اوربا وفرسانها في القرون الوسطى في تعديـل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم والرفقة بها الى حيـث الانسانية والنبالة . وكل ذلك دون ان يصيبهـم ضعف يفقد من فروسيتهم وشجاعتهم شيئا(٢٥) .

وقال غوستاف لوبون : « وكان عرب اسبانيا يتصفون بالفروسـية المثالية خلا تسـامحهم العظيم وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما الى هذا من الخلال التي اقتبستها الامم النصرانية باوربا منهم مؤخرا فتؤثر في نفوس الناس تاثيرا لا تؤثره الديانة . وللفروسـية العربية شروطها كما للفروسية الاوربية التي ظهرت بعدها فلم يكن المرء ليصير فارسا الا اذا تحلى بهـذه الخصـال العشر « الصلاح والكرامة ورقة الشمائل والقريحة الشعرية والفصاحة والقوة والمهارة فـي ركوب الخيل والقـدرة علـى اسـتعمال السـيف والرمح والنشـاب »(٢٦) .

وقال رينو : « وازدهرت الفروسية التـي تعد مـن خصائـص الخلـق العربـي .

غير انها لم تحدد قواعدها وتعين انظمتها وتلمع مبادئها الا في عهد الناصر وابنه ، ففي ذلك العهـد اخذت تتطور مبادىء الفروسـية من تلقاء نفسـها مقترنة بالنخوة واحترام الجنس اللطيف . ويقول كاتب مبـدع آخر : ان الفروسية باصـولها التي انتشرت في الامم المسيحية في الغرب كانت قد زهت بين المسلمين في عهد الناصـر والحكم والمنصـور فكان

(٢٤) الاستاذ عمر دسوقي « الفتوة عند العرب » ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ بتصرف يسير .

(٢٥) د . عبدالحليم محمود « اوربا والاسلام » ص٥٤ .
(٢٦) حضارة العرب ص ٢٧٨ .

الفرسان الاجانب يغدون مطمئنين الى بلاد الاندلس لمبارزة الفرسان المسلمين»(٢٧) .

وقال دريبان : « ان تنعمات العرب وذوقهم السليم وشهامتهم وحميتهم وآدابهم الاجتماعية ولطفهم سارت من غرناطة وقرطبة الى بروفانس ولانجودوك . واخذ امراء فرنسا والمانيا وانجلترة يقلدون العرب في حب الفروسية وركوب الخيل واصبحوا يفتخرون بذلك كافتخار العرب به وباتقانه وكذلك نقلوا عنهم الصيد بالشباك وبالحراب وبالطيور الجارحة مثاة وركوبا حتى ان ذلك اضحى من الملاهي الاعتيادية عندهم وافرغ امراء الافرنج جهدهم في ان يتمكنوا من ادراك ما ادركه العرب من ذلك ومن تربية الخيول الكريمة الاصل التي اصبحت في الاندلس من احسن الانواع»(٢٨)

وذكر رفول في كتاب « تاريخ الجيش الفرنسي » : ان الاوربيين اخذوا عن العرب فكرة الفرسان الملثمين كما اخذوا عنهم فكرة الفرسان المجردين من الدروع والاسلحة الثقيلة »(٢٩) .

وقال الكاتب الاسباني الكبير « بلاسكو ايبانيز » في قصته « في ظل الكنيسه » لقد نشأت روح الفروسية بين عرب اسبانيا واخذها عنهم فيما بعد اهل الشمال زاعمين انها طبيعة من طبائع الامم المسيحية »(٣٠)

وجاء في كتاب الشعراء التروبادور ص٧٥ : « كم من دروس في تقاليد الشرف والتسامي والنبل تلقنها الصليبيون الهمج عن فرسان الاسلام »(٣١)

ويقول الاستاذ محمد عبدالله عنان : « ان الفروسية الاسلامية اقدم واعرق ـ من الفروسية الغربية ـ فهي ترجع الى عصر الاسلام الاول في القرن الاول للهجرة « القرن السابع الميلادي » ولكنها لم تكن نظاما دينيا او سياسيا بل كانت خلة وموهبة وكفاية وكان لها ايضا نوع من الرسوم والتقاليد . ويفرد ابن قتيبة في كتابه « عيون الاخبار » (ج١ ص١٢٢ وما بعدها) بابا للتحدث

(٢٧) سيد امير علي « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » ص ٤٤١ .
(٢٨) عبدالمنعم الغلامي «مآثر العرب والاسلام في القرون الوسطى» ص ٢٦٩ .
(٢٩) مجلة العربي العدد ٥٣ .
(٣٠) ابتين دينيه « محمد رسول الله » ص ٢٢٤ .
(٣١) محمد مفيد الشوباشي « العرب والحضارة الاوربية » ص ٧٩ .

عن الفروسية وآدابها ويورد عن اصولها ورسومها بعض الاقوال المأثورة اما الفروسية النصرانية فلم تزدهر وتستكمل عناصر الاستقرار وتغدو فوق صفتها الحربية ؛ نظاما سياسيا واجتماعيا يرجع الى اصول ورسوم مقررة ادمجت فيها الحقوق والواجبات مما قبل القرن الحادي عشر »(٣٢)

وقال الاستاذ عمر الدسوقي : « ويجنح كثير من الباحثين الى ان الفروسية الغربية قد اكتسبت ثروة نفسية وخلقية من الفتوة العربية حتى ظهرت في ثوبها القشيب الذي تفخر به ، بل ان منهم من غالى فقال ان كلمة Chevalerie التي نعربها بكلمة فروسية ماخوذة من كلمة Cherval او Chelval وهي السروال العربي الذي كان يميز الفتيان عن سواهم وان اوربا لم تعرف الفروسية الا عن العرب ويؤيد هذا الراي فريق كبير من الباحثين(٣٣) .

هذا وقد مرت الفروسية الغربية باطوار وادوار متعددة فمن فروسية عسكرية تعتمد على القوة او الشجاعة وحدها وليس فيها من سمو الروح ودماثة الخلق شيء ثم فروسية خاضعة لتعاليم الكنيسة مملوءة بالتعصب الديني، ليس فيها شيء من سماحة العقل واتساع افقه الى فروسية حديثة فيها كثير من الصفات الانسانية ومثلها العليا .

موازنة بين الفتوة العربية والفروسية الغربية :

يرى جوتييه ان قانون الفروسية يتكون من ثمانية اصول منها اربعة دنيوية واربعة دينية . اما الوصايا « الاصول » الاربعة الدنيوية من قانون الفروسية فتشمل فضائل الفروسية الاربع ، الا وهي :

١ ـ الشجاعة « لا تتقهقر امام العدو »
٢ ـ الوفاء بالعهد « لا تكذب وف بعهدك »
٣ ـ الكرم « كن جوادا واغدق على الجميع »
٤ ـ حماية الضعيف « احترم جميع الضعيفات وكن المحامي عنهن »(٣٤)

وقد تفوق المسلمون على الغربيين في هذه الصفات ! فلو اخذنا الكرم ـ على سبيل المثال ـ

(٣٢) مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(٣٣) الفتوة عند العرب ص ٢٦٧ .
(٣٤) واصف بطرس غالي « تقاليد الفروسية عند العرب » ص ٢٢٠ .

لرأينا أن العربي والمسلم لم يكن يصدر في كرمه عن قانون او يفعله رياء وانما كان طبعا مجبولا عليه !

فقد وردت آيات كثيرة وعديدة تحث عليه منها : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ... » وقال تعالى : « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ماانفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقال تعالى : « فلا اقتحم العقبه وماادراك ما العقبه فك رقبه او اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة او مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين امنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة اولئك اصحاب الميمنة »

ولقد نفر من البخل واعد للبخلاء عذابا عظيما « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والارض والله بما تعملون خبير » .

وقال تعالى : « ياايها الذين امنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ... »

وقال تعالى : « واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله اذا تردى »

وقال تعالى : « ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون »

ووردت احاديث كثيرة ايضا في الحث على الكرم وفي النهي عن الشر والبخل منها :

قوله ص « اتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وعن جابر «رض» قال ماسئل رسول الله «ص» شيئا قط فقال لا . وقوله «ص» : « ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما اللهم اعط منفقا خلفا ، ويقول الاخر : اللهم اعط ممسكا تلفا » وان رسول الله «ص» قال : قال الله تعالى : انفق يا ابن آدم ينفق عليك وعن عبدالله بن عمرو بن العاص «رض» ان رجلا سأل رسول الله «ص» اي الاسلام خير ؟ قال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وقوله «ص» : ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله عز وجل » .

وقوله «ص» : اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على ان سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم(٣٥) .

ووردت اقوال لاتحصى في الكرم ، اليك عزيزي القاريء بعضها :

قال ابن عباس : لايزهدنك في المعروف كفر من كفره فانه يشكرك عليه من لم تصطنعه اليه .

وقال سلم بن قتيبة : احدهم يحقر الشيء فياتي ماهو شرمنه يعني المنع .

وقال سليمان الداراني : لو ان الدنيا كلهالي فجعلتها في فم اخ من اخواني لاستقللتها له » .

وقال ايضا : « اني لالقم اخي اللقمة فاجد طعمها في حلقي !! » وكان بعض السلف «رض» يقول : مؤاكلة الاسخياء دواء ومؤاكلة البخلاء داء .

وقال سلمان الفارسي «رض» : اذامات السخي قالت الارض والحفظة رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه واذا مات البخيل قالت اللهم احجب هذا هذا العبد عن الجنة كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا . وكانت ام البنين اخت عمر عبد العزيز تقول : اف للبخل ؛ والله لو كان طريقا ما سلكته ، ولو كان ثوبا مالبسته » .

واما الافعال فلا يمكننا الان نستشهد ببعضها والتي تعتبر قطرة من قاموس محيط !

فهذا عبد الله بن العباس ابن عم الرسول «ص» الذي لاتحصى مكرماته جاءه رجل من الانصار فشكا اليه امره ؛ وانه ولد له ولد وان امه قد ماتت وهي تلده ؛ فامر وكيله بان يشتري له جارية تحتضنه وان يدفع له مائتي دينار للنفقة على تربية الطفل . وقال للانصاري :

عد الينا بعد ايام فانك جئتنا وفي العيش يبس وفي المال قلة .

قال الانصاري : لو سبقت حاتما بيوم واحد ماذكرته العرب ابدا ولكنه سبقك فصرت له تاليا ؛

---

(٣٥) يحيى بن شرف النووي « رياض الصالحين » ص ٢٥٤ وما بعدها .

وانا اشهد ان عفوك اكثر من مجهودك وظل كرمك اكثرمن وابله .

وهذا عبد الله بن جعفر وقد لامه قومه لانه اعطى امراة مالا كثيرا وقالوا له : انها لاتعرفك،وكان يرضيها اليسير ، فقال : ان كان يرضيها اليسير ، فانا لا ارضى الا بالكثير . وان كانتلاتعرفني فانا اعرف نفسي .

وما فعله عبد الله بن العباس ايضا حيث شاطر الحسين بن على ماله حين حبس معاوية عنه مايستحقه وقد اعطى سائلا الف درهم واعتذر له . وهو اول من نظر جيرانه ووضع الموائد على الطريق في الاسلام (٣٦)

وهذا سعيد بن العاص وقد وهبه معاوية مرة خمسين الف درهم ليصلح بها حاله ويشتري ضيعة تعينه على مكرماته : فقال له : بلاشتريبها حمدا وذكرا باقيا ، اطعم بها الجائع وازوج بها الايم وافك بها العاني واواسي بها الصديق واصلح بها حال الجار فلم يات عليه ثلاثة اشهر وعنده منها درهم !! .

وهذا عبدالله بن عامر فاتح خراسان واطراف فارس والافغان وقد كان صبيا صغيرا حين فتح النبي «ص» مكة وعندما رآه النبي «ص» قال لاهله: « هذا ابننا وهو اشبهكمبنا » ولما تم لابن عامر مثل هذا الفتح العظيم ، قيل له : « لاجرم لاجعلن شكري لله على ذلك انلخرج محرما معتمرا منموقفي هذا. فاحرم بعمرة مننيسابور وخرج ماشيا الىبيتالله يشكر الله على النصر وقدم على عثمان واستخلف قيم بن الهيثم على خراسان .

وكان جوادا يضرب المثل بكرمه ، قيل : انه اشترى من خالد بن عقبة بن ابي معيط داره التي في السوق بالاف الدراهم ولكنه سمع في الليل بكاء اهل خالد فسال ، فقيل له : ان هؤلاء يبكون دارهم ، فالتفت الى خادمه ، وقال : ياغلام فاتهم واعلمهم ان الدار والمال لهم جميعا (٣٧)

وجاءت جارية للحسن تحييه بشيء من الريحان فقال لها : انت حرة لوجه الله ، فقيل له : « جاءتك جارية بريحان فاعتقتها » فقال قال الله تعالى : «واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها او ردوها». وباع اعرابي ناقة له من مالك بن اسماء ، فلما صار الثمن في يده نظر اليها فذرفت عيناه ثم قال :

وقد تنزع الحاجات ياام معمر
كرائم من رب بهن ضنين

فقال له مالك : خذ ناقتك فقد سوغتك الثمن اي اعطيتك اياه وتركته خالصا .

وكان عبدالله بن جدعان التيمي حين كبر اخذ بنو تيم عليه ومنعوه ان يعطي شيئا من ماله ، فكان الرجل اذا اتاه يطلب منه قال :ادن مني ، فاذا دنامنه لطمه ، ثم قال اذهب فاطلب بلطمتك او ترضى ، فترضيه بنو تيم من ماله (٣٨)

وقال رجل لابن شبرمه : فعلت بفلان كذا ، فقال : لا خير في المعروف اذا احصي .

وكان الاشعث بن قيس لايقدم من سفر فيصلي الفجر الاكساهل المسجد ووصلهم .

وعن عكرمة بنالاغر عنابيه قال : كانت لي على رجل من كندة الف وخمس مائة درهم ، فاتيته اتقاضاه ، فقال : ماعندي شيء : ولكن الاشعث قد قدم اليوم ، وما قدم منسفر قط فصلى انفجر فيالمسجد الاكسا ووصل. فاحضرنا بالغداةفصلىمعنا فاني لارجو ان تاخذ مالك قال : فصليت معهم الفجر فلما سلم الامام ، قام رجل فقال :

ايها القوم اقيموا صفوفكم ، ثم اعطى كل رجل جله وخمسمائةدرهم . فقال : جاءنيالرجل فاعطاني الخمسمائةدرهم التيدفعتاليه، واعطيت انا خمس مائة اخرى لنفسي فانصرفت بالف درهم (٣٩)

وقام رجل الى اسد بن عبدالله فسأله ، فاعرض عنه ، فقال : اماوالله اني لاسالك من غير حاجة . قال: فما يدعوك الىمسالتي اذن ؟ قال:رايتك تحب من اعطيته فاحببت ان تحبني ، فاعطاه عشرة الاف درهم .

ومرض قيس بن سعد بن عبادة رحمه الله فاستبطأ اخوانه عن عيادته ، فقيل انهم يستحيون ممالك عليهم من الدين . فقال : اخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ، ثم امر مناديا ، فنادى : من كان لقيس عليه دين فهو في حل منه. فكسرت درجته بالمشي لكثرة من عاده .

وحكى الهيثم بن عدي قال : تمارى ثلاثة في اجواد الاسلام ، فقال رجل : اسخى الناس في عصرنا هذا عبدالله بن جعفر بن ابي

---

(٣٦) العقد الفريد ج ١ ص ٨٢ .
(٣٧) اكرم زعيتر ودرويش المقدادي « تاريخنا باسلوب قصصي» ص ٢٠٢ - ٢٠٣

(٣٨) حمدي عبيد « عيون الاخبار » ص ٨٥ وما بعدها .
(٣٩) اسامة بن منقذ « لباب الاداب » ص ١٠٤ .

طالب وقال آخر اسخى الناس عرابة الاوسي . وقال اخر : بل قيس بن سعد بن عبادة ، واكثروا الجدل في ذلك وكثر ضجيجهم وهو بفناء الكعبة . فقال لهم رجل : قد اكثرتم الجدال في ذلك فما عليكم ان يمضى كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر ما يعطيه ونحكم على العيان فقام صاحب عبد الله اليه . فصادفه قد وضع رجله في غرز ناقته يريد ضيعة له ، فقال يابن عم رسول الله . قال : قل ماتشاء قال : ابن سبيل ومنقطع به . فاخرج رجله من غرز الناقة وقال له ضع رجلك واستو على الراحلة وخذ ما في الحقيبة واحتفظ بسيفك فانه من سيوف علي بن ابي طالب . قال : فجاء بالناقة والحقيبة فيها مطارف خز واربعة الاف دينار واعظمها واجلها السيف !

ومضى صاحب قيس بن عبادة ، فصادفه نائما ، فقالت الجارية هو نائم ، فما حاجتك اليه ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع به قالت : حاجتك اهون من ايقاظه ، هذا كيس به سبعمائة دينار والله يعلم ان ما في دار قيس غيره ، خذه وامض الى معاطن الابل ، الى اموال لنا بعلامتنا فخذ راحلة من رواحله وعبدا وامض لشانك فقيل ان قيسا لما استيقظ من نومه اخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها !

ومضى صاحب عرابة الاوسي اليه ، فالفاه قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو يمشي على عبدين وقد كف بصره ، فقال : ياعرابة ، ابن سبيل ومنقطع به فخلى العبدين وصفق بيمناه على يسراه وقال : اواه اواه !! ما تركت الحقوق لعرابة مالا !! ولكن خذهما ، يعني العبدين قال : ما كنت بالذي اقص جناحيك ، قال : ان لم تأخذهما فهما حران فان شئت تأخذ وان شئت تعتق . واقبل يلتمس الحائط بيده راجعا الى منزله . فاخذهما وجاء بهما فثبت ان الثلاثة هم اجواد عصرهم الا انهم حكموا لعرابة لانه اعطى غاية جهده(٤٠) .

وعن ام ذرة وكانت تخدم عائشة رضوان الله عليها قالت : بعث ابن الزبير رحمه الله الى خالته ام المؤمنين عائشة «رض» في غرارتين ثمانين ومائة الف درهم . فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس حتى فرغ فلما امست ، قالت : ياجارية ، هاتي فطوري فجاءت بخبز وزيت . فقالت لها ام ذرة : ما استطعت ـ فيما قسمت اليوم ـ ان تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت : لو كنت ذكرتيني لفعلت !!

ويروى انه كان لعثمان بن عفان على طلحة بن عبدالله ـ رض ـ خمسون الف درهم فخرج عثمان يوما الى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه . فقال له عثمان «رض» : هو لك يا ابا محمد معونه على مروءتك .

وخرج عبدالله بن عامر بن كريز رحمه الله من المسجد يريد منزله ، وهو وحده فقام اليه غلام من ثقيف فمشى الى جانبه ، فقال له عبدالله : الك حاجة ياغلام ؟ قال : سلامتك وفلاحك ، رايتك تمشي وحدك فقلت اقيك بنفسي واعوذ بالله ان طار بجناحك مكروه » فاخذ عبدالله بيده ومشى معه الى منزله ، ثم دعا بالف دينار فدفعها الى الغلام ، وقال : استنفق هذه ، فنعم ما ادبك اهلك.

قال الشافعي رحمه الله : لا ازال احب حماد ابن ابي سليمان لشيء بلغني عنه ، انه كان يوما راكبا حمارا له ، فحركه فانقطع زر له فمر على خياط فاراد ان ينزل ، فسوى زره ، فاخرج له صرة فيها عشرة دنانير فسلمها الى الخياط واعتذر اليه من قلتها .

قال الحميدي : قدم الشافعي رحمه الله من صنعاء الى مكة بعشرة الاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثر الدنانير على ثوب ثم اقبل على كل من دخل عليه ، يقبض قبضة ويعطيه ، حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عليه شيء(٤١) .

ولنكتف بهذا القدر « اليسير » من الايات والاحاديث والاقوال والافعال التي تدل على الكرم والسخاء .

اما الاصول الدينية الاربع فسنحاول ان نقارن بينها وبين التعاليم الاسلامية لنرى وجه الشبه بينهما وكيف ان هذه الاصول او التعاليم مستقاة من الاصول والتعاليم الاسلامية !!

وهذه التعاليم هي :

١ ـ ان تصدق كل تعاليم الكنيسة وتتمثل لاوامرها فان فعلت ذلك ولو ادى هذا الى استشهادك في سبيل عقيدتك دخلت الجنة وهذا المبدأ مقرر في الاسلام في ايات عديدة في عدة سور منها : « ولاتقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون » وكذلك « ومن يطع الله

(٤٠) يعقوب عبدالنبي « المختار من كتاب نمرات الاوراق لابن حجه الحموي » ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٤١) لباب الاداب ص ١٤٥ .

والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا » .

٢ ــ ان تحمي الكنيسة وتبذل كل ما تستطيع من مال ونفس ونفيس في سبيل نصرتها وتقويتها وقد امر الله سبحانه وتعالى في اكثر من آية كريمة بالدفاع عن الدين وحمايته والبذل في سبيل نصرته قال تعالى : « الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » وقال تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

٣ ــ ان تشن على الكافرين حربا لا هوادة فيها ولا رحمة لكي تخضع الكافرين لاوامر الكنيسة وقد نفذ الصليبيون هذا الامر بدقة ولم يتهاونوا فيه يوما واحدا وهم القائلون : « اذا كنا راقدين في جنات النعيم فاننا سننزل منها لمحاربة المسلمين!!» .

وقد عقدت الكنيسة مجمعا سنة ١٠٩٥ بمدينة « كليرمونت » بجنوبي فرنسا وهو المجمع الذي خطب فيه البابا اربانيوس الثاني ، خاطب فرسان الاقطاع الاوربي بقوله : « ... انتم فرسان اقوياء ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم .. ولكن تعالوا وحاربوا الكفار « المسلمين » ! ... يامن تنابذتم اتحدوا .. يامن كنتم لصوصا كونوا الان جنودا تقدموا الى بيت المقدس ... انتزعوا تلك الارض الطاهرة واحفظوها لانفسكم فهي تدر سمنا وعسلا ! .. انكم اذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق ! .. »(٤٢) .

بينما كان المسلمون على العكس من ذلك تماما فقد قال تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . وفي كتاب فتوح الشام لمحمد بن عبدالله الازدي البصري : لما بلغ الجيش الاسلامي وادي الاردن وعسكر ابو عبيدة في « فحل » كتب الاهالي المسيحيون في هذه البلاد الى العرب يقولون : يامعشر المسلمين انتم احب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا ، ولكنهم غلبونا على امرنا وعلى منازلنا » .

وهذا ابو بكر الصديق «رض» يخاطب اول بعث وجهه للغزو بعد وفاة رسول الله «ص» : « يا ايها الناس قفوا اوصيكم بعشر فاحفظوها عني لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امراة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لماكلة وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم ومافرغوا انفسهم له وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بانية فيها الوان الطعام فاذا اكلتم منها شيئا فاذكروا اسم الله عليها » .

ومن امثال معاملة الاعداء المحاربين ، ذلك العدل الدقيق الذي هو ارفع لرؤوس المسلمين من الاف معارك النصر ، منه انه لما استخلف عمر بن عبدالعزيز وقدم عليه من اهل سمرقند ، فرفعوا اليه ان قتيبة دخل مدينتهم واسكنها المسلمين على غدر !! فكتب عمر الى عامله يأمره ان ينصب لهم قاضيا ينظر فيما ذكروا ، فان قضى باخراج المسلمين اخرجوا . فنصب لهم قاضيا فحكم باخراج المسلمين على ان ينابذوهم على سواء ! فكره اهل سمرقند الحرب واقروا المسلمين ، فاقاموا بين اظهرهم . وفي رواية ، فقال اهل سمرقند : بل نرضى بما كان ولا نجد حربا . لان اهل الراي فيهم قالوا : خالطنا هؤلاء القوم واقمنا معهم وامنونا وامناهم ، فان عدنا الى الحرب لاندري لمن يكون الظفر وان لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة !

ولما علم ابو عبيدة ان هرقل حشد جيشا عظيما ضخما كتب الى عمال المدن المفتوحة يأمرهم بان يردوا عليهم ما جبي من الجزية منها وكتب الى الناس يقول : « انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشروط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا واخذوا كل شيء بقي لنا »(٤٣) .

وهذا ابو عزيز بن عمير حامل لواء المشركين يوم بدر يقول : كنت في رهط من الانصار حين اقبلوا بي من بدر فكانوا اذا قدم غداؤهم او عشاؤهم خصوني بالخبز عملا بوصية رسول الله «ص» اياهم بنا ، ماتقع في يد احد منهم كسرة خبز الا نفحني بها ، فأستحي فاردها على احدهم فيردها علي ، ما يمسها .

اما قيس بن عاصم فانه يبكي ويتندم اشد

---

(٤٢) مجلة العربي العدد ٢١٧ ديسمبر « ك ١ » ١٩٧٦ .

(٤٣) القاضي ابو يوسف « الخراج » ص ١٢٨ بتصرف بسيط .

الندم لانه قتل الحطم في حروب الردة ورجله مقطوعة وهو لايعلم ان برجله شيئا .

وفتح المامون يوما حصنا من حصون الروم وجمع المسلمون الغنائم والاسلاب والسبي من النساء والاولاد وانتظروا ان توزع عليهم هذه الغنائم ومن بينها السبي من النساء ، وفكر المامون في مصير النساء والاولاد وما ينتظرهم من ذل وعبودية ، فتراه يطلب من جنده ان يبيعوا السبي ويظهر من الرواية انه كان كبير العدد وان المامون دفع من جيبه الخاص ستة وخمسين الف دينار راضيا ثم اطلق سراح السبي ورد عليهم حريتهم وكرامتهم(٤٤).

ومن امثال حسن المعاملة مع الاعداء وعند المقدرة ، ان صلاح الدين الايوبي راى عددا كبيرا من الافرنج بعد معارك ظفر باسم في فلسطين يحملون على ظهورهم والديهم الضعفاء او اقاربهم ، فرق قلبه لهم فمنحهم المال والدواب . ولما استاذنته الملكة « سيبيل» في الرحيل هي واتباعها اظهر لها الاحترام والاسف على حالها ، فشكرت له واثنت عليه ، وسيرها الى زوجها السجين بقلعة نابلس وسمح لها بالمكوث فيها عنده وقد تبعها في خروجها كثير من النساء الباكيات الحاملات اطفالهن ولما اقتربن من السلطان استرحمنه ، فرحمهن وذويهن وامر باعطاء الامهات ابناءهن والزوجات بعولتهن ، والابناء آباءهم وحلف ليعاملن من بقي من الاسرى بكل رحمة واحسان !

وقيل للسلطان ـ والبطرك خارج باموالـه وذخائره وكانت كثيرة جدا ـ لم لا تصادر هذا فيما يحمل وتستعمله فيما تقوي به امر المسلمين ؟ فقال لهم السلطان : « لا آخذ منه غير العشرة دنانير ولا اغدر بـه » .

وعندما مرض ريتشارد قلب الاسد ! في خلال الحروب الصليبية حزن عليه صلاح الدين ، وعندما انهكته الحمى طلب ريتشارد باكهة فارسل اليه صلاح الدين التفاح والكمثرى والثلج الذي كان يأتي بـه من الجبال كل يوم لاجله !

وعندما يرى صلاح الدين في معركة يافا غريمه ريتشارد المار الذكر قد فقد حصانه ، يبعث اليه جوادين كريمين اذ راى انه لايليق بالمحارب المغوار ان يقاتل راجلا !!

وان نور الدين امتنع عن انتهاز فرصة موت « بودوان » لاستعادة غسقلان قائلا : « اني لو فعلت ذلك لاهدرت الانسانية واستهنت بالآم شعب يبكي مولاه ولا خللت بشرفي الشخصي اذ اهاجم منكوبين لم يتاهبوا للدفاع عن انفسهم »(٤٥) .

وعندما وقع « جان دي برين « اسيرا في يد الملك الكامل بدمياط واحضر امامه ، اخذ يبكي وينتحب ، فقام له الملك الكامل : مم تبكي ايها الملك ؟ فقال لاني تركت القوم الذين اتولى امرهم يموتون جوعا ويموتون غرقا . فرق الملك الكامل له وبكى مثله ثم ارسل ثلاثين الف رغيف للفقراء والاغنياء من جيش عدوه على السواء اربعة ايام متوالية !!

وما فعله يعقوب ملك مراكش عندما استغاث به الملك « الفونس الحكيم » فيعبر اليه يعقوب البحر ويلتقي به في « زارا » وفي ذلك اللقاء المشهور يريد الامير القشتيلي التمس !! ان ينزل من منزلة الصدارة والشرف للملك الذي اقبل لنجدته فيقول له يعقوب ان لك مجلس الشرف مادمت مغلوبا على امرك ... ولقد اليتك لاعينك على تاديب ماق !! فمتى اديت هذا الواجب واصبحت انت سعيدا قويا نازعتك كل شيء وناصبتك العداء من جديد .

اين هذا مما فعله السيد « الكنبيطور رودريك الفيغاري » بنكثه العهد ، ولم يبال بعهد الامان الذي قطعه لمدينة ساغونثة ومدينة بلنسيه فاطعم الكلاب بعض الاسرى وتكل ببعضهم وحرق بعضا اخر منهم اكراها لهم على كشف كنوزهم ؟!

ومن الطاغية بطره او « بطرس القاسي » الذي دعا ملك غرناطة ابا سعيد الى قصره فاعجبه ماكان يتحلى به الملك ابو سعيد من الجواهر فلم ير غير سلبه اياها بقتله غدرا (٤٦)

وما اقترفه ريتشارد قلب الاسد عندما دفعه جبنه الى اصدار اوامره بذبح اسرى عكا سنة ١١٩١ رغم مانصت عليه المعاهدة من تامين حياتهم وحريتهم ! (٤٧)

وروى التاريخ الاوربي ان شارلمان اسر احد امراء العرب وادخل عليه وهو بين فرسانه وحاشيته والموائد موضوعة والكل ياكلون فصاح فيه اما ان ترتد عن دينك واما ان تقتل ؟! فقال الامير العربي: بل اوثر القتل ! فقال شارلمان : ولماذا ؟ قال :

---

(٤٤) علي محمد راضي « عصر الاسلام الذهبي المامون العباسي » ص ٤٩ .

(٤٥) تقاليد الفروسية عند العرب ص ٢٤ .
(٤٦) توستاف لوبون « حضارة العرب » ص ٢٨٠ .
(٤٧) تقاليد الفروسية عند العرب ص ٢٤ .

ستعرف بعد برهة من هؤلاء الاشخاص الضخام الذين يلبسون الفراء ويجلسون على مائدتك ! فقال شارلمان : انهم مطارنة وقساوسة . فسأله الامير العربي: ومن هؤلاء النحاف الذين يلبسون السواد فاجاب : انهم رهبان يصلون من اجلنا . فسأله مرة ثالثة : ومن هؤلاء الذين يجلسون على الارض ويلقي لهم فتات المائدة ؟فاجاب شارلمان : انهم الفقراء فصاح الامير العربي : اهكذا تعامل الفقراء؟ ان هذا مخالف للشرف والمروءة ولايرضى ربك الذي تعبده . والان لالن اتنصر ابداً وهذه سمة دينك واني افضل الموت !

وتذكرنا هذه الحادثة باخرى يظهر منها الفرق الشاسع بين كرم العرب وكرم سواهم . وذلك انه لما استولى ابو عبيد بن مسعود الثقفي ايام عمر بن الخطاب «رض» على كسكر وسرح المثنى وغيره من القواد يشرون على النواحي ؛ صالحه من خاف ممن بقي وجاء الدهاقون بانية فيها اطعمة فارسية وقالوا هذه كرامة اكرمناك بها فرى لك قال : اكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا لم يتيسر ، ونحن فاعلون ؛ قال : لا حاجة لنا فيه بئس المرء ابو عبيد ان صحب قوما من بلادهم اهرقوا دماءهم دونه او لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبهم ، لا والله لاناكل مما افاء الله عليهم الا مثل ما ياكل اوساطهم ، ولم يأكل من طعام اتى به الدهاقون غداة ذلك اليوم حتى علم انهم قربوا مثله لجنده جميعا .

يقول ستانلي لين بول : وحينما راى القائد العربي المغوار ـ ابن ابي عبيدة ـ طلائع الهزيمة قذف بنفسه بين الاعداء ومات وسيفه في يده ، وكان من جبن ملك ليون ووحشيته ان امر بحز راس هذا الجندي الشجاع وتسميره بباب العقلمة الى جانب راس خنزير !(٤٨) .

اين هذا ايضا مما فعله المنصور بن ابي عامر حين اسر ذات يوم عددا من الجنود الاسبانيين وطلب منهم ان يلقوا سلاحهم ففضلوا الموت على القاء السلاح ، فما كان منه الا ان افسح لهم الطريق ليلحقوا بجيش اعدائه ؛ اكبارا منه لشجاعتهم ، وكان في استطاعته قتلهم جميعا !!

ولذلك قال عنه فيرايراس : « انه لعلى خلق عظيم ويقول عنه موسدن ان المنصور قد هدم

(٤٨) قصة العرب في اسبانيا ترجمة علي الجارم ص ١١٥ .

بالحديد والنار المدن التي قاومته ولكنه ابى ان يصاب اي شخص اقل اصابة اذا اسلم طواعية كما روى مؤرخو الفرنجة انفسهم عن المنصور بن ابي عامر اطلاقه سراح الف وثمانمائة اسير مسيحي من ذكور واناث حين جاءه الخبر بانتصار جنده في احدى المواقع الحربية الكبيرة سنة ٩٩٧ شكرا لله(٤٩) ونختم النقطة الثالثة او بالاحرى الاصل الثالث بشهادة المؤرخ الانكليزي ستانلي لين بول حيث قال : «وكانت حروب المسيحيين نقمة وسوط عذاب على اعدائهم فقد كانوا جفاة اميين وكانت اخلاقهم على انساق مع اميتهم . وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين الا التعصب والقسوة : فانهم لم يؤمنوا مستجيرا ولم يتركوا فارا ولم يبقوا على جريح . وهذا يذكرنا ، والحزن ملء صدورنا بما كان للعرب من بطولة ورفق وسماحة خلق فكثيرا ماعفوا عن اعدائهم نبلاء منكرمين على حين نرى اليوم رجال ليون وقشتالة العتاة يذبحون جميع رجال الحاميات ويستاصلون مدنا مليئة بالقطان ، حتى اذا نجا احد من سيفهم لم ينج من استعبادهم »(٥٠) وصدق الله العظيم : « قل كل يعمل على شاكلته » ولله در الشاعر العربي اذ قال :

ملكنا فكان العدل منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم ابطح
وحللتم قتل الاسارى وطالما
غدونا على الاسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا
فكل اناء بالذي فيه ينضح

٤ ـ المحافظة على امراء الاقطاع مهما كانت هذه الاوامر ولو خالفت العقل لان نظرية التفويض كانت سائدة في ذلك الوقت وكان الحاكم يعتقد انه خليفة الله في الارض يفعل مايشاء دون مراجعة او نقص . اما الاسلام فقد امرنا حقا بطاعة اولى الامر حيث يقول الله تعالى : « ولكن هذه الطاعة ليست عمياء ، فقد حدد الاسلام هذه الطاعة في قوله «ص» : «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق» . وجاء في الاحكام السلطانية : من الواجب ان تنحت

(٤٩) الفتوة عند العرب ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨
(٥٠) قصة العرب في اسبانيا ص ١٠٤ .

الى اولي الامر وان تطيعهم طالما ان اوامرهم ليس فيها ما يغضب الله فاذا امروك بما يغضب الله فلا تنصت اليهم ولا تطعهم . وهل ننسى حادثة عمر بن الخطاب مع عمرو بن العاص حين جاء المصري يشكو ابنه واستدعاه من مصر ، وقال له : ياعمرو بن العاص متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ، وحادثة الاعرابي مع عمر بن الخطاب ايضا حين خطب الناس وقال لهم : لو رايتم في اعوجاجا فقوموني فقال له الاعرابي : لو راينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا وقول الخليفة ابي بكر الصديق «رض» عندما ولي الخلافة : « ايها الناس اني قد وليتعليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينوني وان اسات فقوموني ... »

المصادر

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ مجموعة من كتب الاحاديث الشريفة .
٣ ـ اوربا والاسلام ، د. عبدالحليم محمود
٤ ـ تاريخنا باسلوب قصصي ، اكرم زعيتر ودرويش المقدادي
٥ ـ التعريفات ، الجرجاني
٦ ـ تقاليد الفروسية عند العرب ، راصف بطرس غالي
٧ ـ الجندية والسلم واقع ومثال ، امين الخولي
٨ ـ الجندية في الدولة العباسية ، نعمان لابت
٩ ـ حضارة العرب ، غوستاف لوبون
١٠ـ الخراج ، القاضي ابو يوسف .
١١ـ دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، د. عبدالعزيز الدوري .
١٢ـ دراسات اجتماعية في العصور الاسلامية : عصر رضا كحالة .
١٣ـ السيرة النبوية ، ابن هشام
١٤ـ السيف في العالم الاسلامي ، د. عبدالرحمن زكي .
١٥ـ الصعلكة والفتوة في الاسلام ، احمد امين
١٦ـ عصر الاسلام الذهبي المامون العباسي علي محمد راتي
١٧ـ العقد الفريد ، لابن عبدربه
١٨ـ عيون الاخبار ، لابن قتيبة
١٩ـ العرب والحضارة الاوربية ، محمد مفيد الشوباشي
٢٠ـ الفتوة ، لابن العمار ، تحقيق مصطفى جواد واخرين
٢١ـ الفتوة الاسلامية لرسان العرب ورسالة الانسانية ، محمد فهمي عبداللطيف .
٢٢ـ الفتوة عند العرب او احاديث الفروسية والمثل العليا عمر الدسوقي .
٢٣ـ الفن الحربي في صدر الاسلام ، عبدالرؤوف عون
٢٤ـ الفهرست ، لابن النديم
٢٥ـ الفروسية ، لابن القيم الجوزية
٢٦ـ قصة العرب في اسبانيا سناللي لين بول ترجمة علي الجارم
٢٧ـ لباب الاداب ، اسامة بن منقذ
٢٨ـ مآثر العرب والاسلام في القرون الوسطى، عبدالمنعم النمري
٢٩ـ محمد رسول الله ، ايثين دينيه، ترجمه عبدالحليم محمود
٣٠ـ المختار من كتاب نمرات الاوراق ، يعقوب عبدالنبي
٣١ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، سيد امير علي
٣٢ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، د. عبدالعزيز الدوري .
٣٣ـ من عيون الاخبار ، حمدي عبيد
٣٤ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، محمد عبدالله عنان

المجلات

١ ـ مجلة الرسالة الاسلامية :
٢ ـ العربي
٣ ـ لواء الاسلام
٤ ـ العلم الجديد

WWW.ATTAWEEL.COM